مدونة
Riyadh
Hamza

الوجه الآخر

فؤاد التكرلي

رواية

دار الآداب

الوجهُ الآخر

فؤاد التكرلي

الوجه الآخر

رواية

دار الآداب - بيروت

مدونة
Riyadh
Hamza
/http://riyadhhamza.blogspot.com

الطبعة الأولى ١٩٦٠
الطبعة الثانية ١٩٨٢
الطبعة الثالثة ١٩٨٩

(١)

خطر له حين مر امام مقهى حسن عجمي، انه سيعود للجلوس فيه عصر هذا اليوم. لم يكن فيه غير بعض المتقاعدين المسنّين، وكانت أرضه مغسولة نظيفة وجوّه صافياً. أحب منذ قدومه بغداد ان يتمتع بجلسة في الصباح يشرب فيها الشاي من الأباريق الاولى، لكن عقربي الساعة كانا بخيلين عليه دائماً بهذه الدقائق القليلة.

كان شارع الرشيد مليئاً بحركة مستمرة والشمس البيضاء تملأه وتملأ نفس محمد جعفر؛ وعندما اجتاز محل المكوى الفني وهواءه الحار، احس بنسيم خفيف يحمل الى وجهه برودة الخريف. كانت الساعة الكبيرة على جانب الشارع تشير الى السابعة والربع وكان الوقت متوفراً لمسيرة قصيرة الى باب المعظّم يتجنّب بها الازدحام في موقف الحيدرخانة. كان هادئاً، يشعر بنظافة وجهه المحلوق وباستعداده النفسي للتمتّع بجمال هذا الصباح المشرق. رأى الفتاة الصغيرة الجميلة تأتي من بعيد مع صاحبتها. كانت ترتدي ثوباً بنفسجياً ينسجم وبشرتها البيضاء الشاحبة، وكانت عيناها سوداوين طويلتين. سكتت حين صار قريباً منها وكانت تضغط بحزمة كتبها على أسفل ثديها الايسر وتبلل شفتيها بلسانها.

اعتاد ان يراها منذ ان افتتحت المدارس قبل شهر. ولم يكن يهتمّ بإدراك المعنى الذي يكمن وراء الحقيقة التي كان يحسّها بغموض في أنه يسعى الى رؤيتها ما استطاع الى ذلك. كانت الشمس مبهجة في ساحة الميدان وسيارات الاجرة تلمع تحتها. لم ير من البيوت البعيدة غير سلسلة مبهمة الملامح لا تعكّر المزاج الصافي. ماذا قد يعني أنه متزوّج لا يمكنه، بأية حال، أن يتّصل بهذه الفتاة؟

إن الحياة تتفتح احياناً، مثل هذه السماء اللؤلؤية، وتحتوي كل القيم التي يقرّها الانسان وتلك التي لا يقرّها ايضاً. والمهمّ، قبل كل شيء، أن تكون لنا النفس العريضة العميقة التي لها قابلية مواجهة مثل هذه الحياة في منتصف الطريق. ولم يخطر له ان يسأل عن تملّكه لمثل هذه القابلية، وكان يثق بأن لديه طبيعة نبيلة يمكنها ان تحب البشر جميعاً؛ حتى طفله الذي لم يولد بعد. ولعله هو سبب هذا النبل. وملأت مخيلته في لحظة صورة زوجته ببطنها المتكورة تحت الثوب الضيق، فشعر باطمئنان وبأنه يملك العالم. ولم يحاول التعرف على مبعث كل هذا. لعله ابنه ولعله هواء الخريف البارد او عينا الفتاة الطويلتان، ولعله شيء آخر يجهله.

وجد الازدحام شديداً حين وصل موقف باب المعظم، فانتحى زاوية ريثما تسنح فرصة للصعود. كانت الباصات الكبيرة الحمراء ترد فارغة ثم تمتلىء بسرعة وتمضي نافخة دخانها الحار في وجوه المنتظرين. وكانت امامه فتاة

وقفت على كثب منه، شعرها طويل اسود وحنايا جسمها مغرية، فتمنى لو استطاع ان يرتقي الباص الذي ستصعد اليه، ولو استطاع ان يجلس قربها ويشم رائحتها الأنثوية. لم يتصل بزوجته منذ عشرين يوماً او تزيد. أخبروه أن ذلك يسبّب لها وللجنين أذى لا مبرر له، فأخذ نفسه بالابتعاد عنها رغم أنها لم تكن تعارض في أي عمل يريده منها. كم تبدو بسيطة رائقة النفس في بعض الأحيان. وهو يحبها لهذه الساعات الطيبة من حياتها، حين يحس أنها تقدّم اليه كيانها كله ليمتلكه. وكل ذلك دون سبب.

إلا ان تينيك العينين الفائضتين بالحنان، كانتا تشعان - في بعض الاوقات القاسية - مقتاً مريعاً، إثر مخاصمات سخيفة بينهما لا يعلم كيف تبدأ ولماذا تستمر ومتى تنتهي. وكان ينهزم بعد كل موجة من موجات الحقد هذه، شاعراً بأنه قد يقتلها لو بقي وقتاً أطول.

أحسّ بلذع الشمس على ظهره ورقبته. لم يكن امرأً صحيحاً ان يسترجع هذه الساعات السوداء مع زوجته. انه يحيي الحقد في قلبه ويزيد في نموّه كلما عمل على نبش هذه الذكريات.

والحقد عدوّه منذ أدرك بعض المعاني في نفسه. لقد جهد عظماء البشر ليحبّوا ما وسعهم الحب، ليحتووا العالم بين ثنايا أفئدتهم. كان شيئاً بعيد المنال أول الأمر، ثم أدركوه بعد نصب وتجارب مريرة، فكسبوا لأنفسهم الى الأبد معنى من المعاني العميقة. ولكن أكانوا سعداء؟ أكانوا

خليي البال؟

ان هذا المعنى لم يكن بالتأكيد راحة او سعادة كما يمكن ان نعرفهما. ولعله حالة انسانية لا تُنال عن غير هذا السبيل الشائك، والا فلِمَ نحقد بمثل هذه السهولة الشنيعة؟

كانت أفكاره تنثال في هذا الصباح المشمس وتتسلسل وتتصل على غير العادة، وكان يلتذّ بمرورها الصامت في ذهنه. لاحظ ان الفتاة قد اختفت، ولكن الازدحام لم يخفّ. لا زال امامه بعض الوقت ليعيد مجرى تأملاته. شعر بيد توضع على كتفه، فخطر له ان رفقة صديق ستحرمه دقائق العزلة الاخيرة. التفت بهدوء فوقع نظره على الشاب المجهول. صدمته فيه نظارتاه السوداوان الكبيرتان على عينيه واصفرار وجهه الشديد، ولم ير فيه احد معارفه. بقي ينظر اليه صامتاً لحظات. كانت كتفاه مرتفعتين ضخمتين وبشرة وجهه نحاسية حائلة. شعر بارتباك وهو يسائل نفسه عما يمكن ان يريده منه. رأى ذراع الشاب تهوي الى جانبه ثم سمعه يهمس بصوت منخفض خشن:

- آني مريض. ودّيني للمستشفى. ما أكدر أمشي. آني..

وهبط رأس الشاب قليلاً. كان شعره الأسود قصيراً مقصوصاً دون اعتناء. تكلم ببطء مرة اخرى -

- آني دا اموت. آني دا.. اموت

سمع كلماته كالشهقة الأخيرة تصدر خافتة من فمه

المتقلّص. كان خافق القلب وأشعّة الشمس تحرق صفحة وجهه اليسرى. لم يعد يسمع ضجة العالم حوله، كانا مخلوقين منفردين فوق ارض لا بشر عليها. سأله:

- شبيك؟

كأنه يجهض؛ ثم التفت حواليه فلم ير في الشارع سيارة أجرة، ولم يجد احداً من الواقفين منتبهاً لما يجري لهما. كان الشاب متكئاً بظهره على العمود الحديدي وراءه وفمه مفتوحاً بعض الشيء. كان يحس شفقة مؤلمة عليه وكان مرتبكاً خجلاً. تراجع خطوة الى الخلف دون ان ينتظر جوابه. أهو حيوان ام عاجز بصورة تبعث على الأسى؟ وماذا سيعمل؟ هل سينهزم منه؟ من هذه الحدود غير المألوفة لإنسانيته؟

أراد في لحظة وباخلاص ان يقوم بعمل يمدّ به يد المساعدة لهذا المخلوق، أن يبدي له أنه معه في هذا العالم، وأنه ليس وحيداً، وتراجع خطوات أخرى الى الوراء. بدأ انهيار مفاجىء على الشاب أفقده كل قوة، فأخذت ساقاه تنثنيان شيئاً فشيئاً وخيل اليه انه يسمع تنفسه الثقيل المتحشرج. كان خائفاً منه، من هذا الفشل المريع.

رأى نفسه يقفز بخفة الى الشارع وينحشر متدافعاً مع جمع الصاعدين الى الباص، ورآه - خلال زجاج النافذة - قاعداً على الارض وركبتاه مرتفعتان قرب صدره وقد تدلى رأسه بينهما. كتلة حزينة سوداء، وسارت السيارة.

ماذا يعني كل هذا؟ أهو ببساطة نقصان في تكوينه

الخلقي؟ أم ماذا يعني؟

كان جالساً بانكماش على مقعد قريب من الباب، ومناظر الشارع تمر امام عينيه الجامدتين باستمرار. يجب ان يجد جواباً لما يعني كل ذلك، وكان يحس اضطراباً في داخله كأنه اصيب بصدمة عاطفية قبل لحظات. لبثت صورة الشاب المريض تحوّم في ذهنه كالشبح خلال مسير الباص. لقد تركه يموت بقسوة لم يصدقها، وما زال لا يصدقها. لعله لفظ أنفاسه الاخيرة الآن. ماذا كان يعني ذلك؟

إن طبيباً او موظفاً صحياً ممتهناً كان بمقدوره أن ينقذه دون حاجة لشعور إنساني مرهف ولكل تلك التعقيدات الداخلية الأخرى. ولكن القضية لم تطرح على هذا الشكل، لأنه لم يكن طبيباً او موظفاً صحياً. لقد وجه اليه سؤال منفرد ـ هل بمستطاع إنسانيته ان تتصل بهذا الشاب المجهول، بضعفه وبألمه واحتضاره؟

ولم يرد أن يجيب، لم يحتمل التفكير في المعنى الذي أسبغه عليه عمله. كان ذلك مؤلماً، مؤلماً؛ خاصة لشخص مثله يعتقد أنه حسّاس بدرجة يستطيع معها أن يشارك في عوالم أناس آخرين. ولكن حساسيته أمر مؤكد، حتى أن الدكتور مراد أرجع اليها آلام معدته المستمرة. ما التفسير اذن؟ أهو يشفق على سيد هاشم مثلاً، او يدخل عالمه ويفهم آماله واعماله، لأنه يريد أن يستدين منه؟

ولكن هذا غير ممكن. إنه لا يستطيع التفكير على هذا

الشكل، لأن معناه تدمير لجميع قيمه الأخلاقية. انتبه على نفسه وهو يترك مقعده بصورة آلية وينزل من الباص سائراً باتجاه دائرته. لا، بل إن تفكيره يشير الى شكّ مريع في وجود هذه القيم أصلاً. كانت معدته ثقيلة وطعم فمه مراً كريهاً. ان الالتهاب سيقضي عليه يوماً ما. لقد قتل في الحرب الأخيرة ملايين البشر، ولم يدرك الكثيرون ماذا يعني ذلك. اما بالنسبة اليه، فان استنجاداً في غير محله يُحدث له آلاماً طويلة في المعدة. وليس هناك غير سبب واحد هو الضعف الذي يستقرّ في صميم شخصيته وفي صميم بنيته. إنه لا يتصرّف مثل أقوياء الشخصية قط. وكل الكتب التي يقرأها تثبت له ذلك، الا اذا اصررنا عبثاً على ان كل هذه القوة في الشخصية ان هي الا بلادة في الإحساس ذات مظهر خلاب. ومنا الفائدة؟

ارتقى درجات السلم ثم اخترق مجازاً مظلماً أوصله الى باب فتحه بسكون ودخل الغرفة. لم يقم له المباشر من مقعده قرب الباب واكتفى بالنظر اليه نظرة جامدة طويلة. كان جو الغرفة كئيباً وجدرانها مختفية تحت صفوف الاضابير. هتف بصوت خشن:

ـ صباح الخير ابو خليل

ازعجته رائحة كريهة ألفها في غرفتهم، رائحة العفونة والتبغ والهواء الفاسد. رفع ابو خليل وجهاً اسمر بارز الوجنتين عن مكتبه المحتشد بالاوراق:

ـ أهلاً. أهلاً وسهلاً بابو جاسم

ثم مسح أنفه بمنديل مكور:

ـ صبحك الله بالخير

ـ الله بالخير

ومد محمد جعفر يده فأخرج كتاباً من احد ادراج مكتبه وضعه قريباً منه. ستتوالى الأوراق بعد قليل، ولكنه سيستطيع بلا شك أن يخلو الى كتابه هذا بعض الوقت، ولعله سيتمكن من نسيان نفسه آنذاك. لم يكن مرتاحاً في جلسته وكان يتذوّق مرارة فمه حين سمع ابا خليل يتكلم :

ـ البارحة سئل عليك الملاحظ

التفت نحوه ونظر اليه باستفهام:

ـ لويش؟؟

ـ يگول شايف مقال عتيگ باسمك

ثم مسح أنفه وأشعل سيجارة من عقب سجارته المنتهية:

ـ گلت له يابه ابو جاسم شاعر قديم وكاتب معروف

فأجابه محمد جعفر:

ـ اي. كاتب متقاعد

فضحك ابو خليل:

ـ يبين الملاحظ معجب بالمقال

فلم يجبه. شعر بفرح يمازجه الفخر ينبع من شق عميق في نفسه. ولكن، كل هذا سخف لا معنى له. لقد

حدث له يوماً أن أدرك أنه لا يكتب إلا لأنه يكتب. ولم يكن يدري بالضبط لماذا يكتب، لماذا يجب أن نكتب على الإطلاق. وكانت هذه الفكرة هي مبدأ التلاشي عنده لقيم لم يكن يملك سواها يوماً من الأيام. وبقي جاهلاً بعد ذلك أكان انقطاعه عن الكتابة إرادياً أم أنه العجز الأبدي الذي يتسلّل بخفاء ويقضي على كل شيء.

دخل المباشر عبيد يعرج في سيره، فوضع عدداً من الأضابير والاوراق على مكتب ابي خليل:

ـ دزهن، على كَولتهم، الملاحظ

كان وجهه ذا سمرة محروقة وفي ظهره حدبة خفيفة. سأله ابو خليل:

ـ منو عنده؟

فعاد عبيد يخرج من الغرفة:

ـ مايلتگي يمه احد

هتف ابو خليل:

ـ وين رايح ؟ لك ما تتعلم الأصول عبيد؟

ثم نظر نحو محمد جعفر متسائلاً مستغرباً وهو ينفث الدخان من انفه. وعاد يخاطب عبيد:ـ

ـ بلكي اريد منك فدشي؟

فضحك عبيد ضحكة بلهاء وعدل من وضع سدارته المتربة:

ـ ليش ساكت، على كَولتهم، يا بو خليل؟

فنظر اليه ابو خليل متظاهراً بالغضب:

- جيب چاي

ثم التفت الى محمد جعفر:

- تشرب چاي ابو جاسم؟

فهز رأسه ايجابا:

- سويها چايين

فعاد عبيد يخرج من الغرفة وهو يتمايل في سيره ويبتسم:

- على راسي .

سأله محمد جعفر مرة عن سبب عرجه فأجابه بأنه أصيب أثناء حركات برزان حين كان جندياً. ثم علم منه بعد ذلك أنه لم يصب برصاص العدو، ولكن بسقوط الجنود عليه حين صعودهم الى احدى السيارات. ضحك الجميع بعد انتهائه من حكايته. كان وجه عبيد آنذاك كثير الغضون أسمر محروقاً؛ وقد ابتسم هو الآخر بسرور بعد ان رأى ضحك الموظفين. شعر محمد جعفر وهو يراقبه بالمأساة المختفية وزاء ملامح هذا الوجه الفارغ. وآلمه أن يرجع سبب ضحكه الى ضحك بقية الموظفين. إن ذلك يعني أنه لا يثق بآرائه عن البشر؛ وانه ينجرف بالأفكار التي تحيطه، مهما سخفت، لأنه لا يملك ما يقاومها به. ولكن، ماذا يمكن أن نعمل أمام إنسان غبيّ؟

جلب له الشاي. لذعه طعمه المرّ وشعر بقشعريرة

خفيفة، فضغط على زر الجرس:

ـ هذا شلون چاي عبيد؟ هاك روح بدله

اضاف ابو خليل وهو يرتشف الشاي من قدحه ويمسح انفه:

ـ عبالك چوبچيني. شكره قليل

ثم اشعل سيجارة بعد ان وضع الكفية في جيبه:

ـ هذا حميد الچايچيماينجرع من واحد ما ينطي فلوسه. مطيرچي. بايع ومخلص

أثاره كلام أبي خليل:

ـ منو راح ياكل عليه فلوسه؟

وشعر بانقباض في صدره. لم يكن الموضوع ان «يأكل» فلوس حميد أم لا يستطيع ذلك، لأن المحاولة ستفشل بالتأكيد؛ غير ان ما آلمه وأحنقه في نفس الوقت، هو ألا يقدر على إيفاء حميد كل دينه في رأس الشهر. كان محتاجاً الى كل فلس يصرفه على شرب الشاي، ومع ذلك بلغ حسابه ديناراً واحداً أعطى منه لحميد نصفاً وأجّل النصف الآخر الى الشهر التالي. وهكذا بدأ الشاي ينقلب الى سائل مجهول اللون والطعم.

دخل عبيد محمر الوجه وهو يحمل استكان الشاي على اناء ممتليء:

ـ سيد محمد؛ هوايه سرسري، على گولتهم، هذا حميد. ما راضي يبدله. آني بيدي صببت ماي حار عليه،

وشوية شكر خليت همانين.

ووضع حمله على المكتب.

ماذا جرى له كي يدخل في معاملات مالية مع امثال حميد؟ ان راتبه ضئيل حقاً، ولكن ضآلته لا تسمح بهوان النفس. لا شيء يسمح بهوان النفس. وشعر ان من الخير ان يفكر بتسديد دينه لحميد بدلاً من التفكير في قضايا لم يناقشه فيها احد. وانتبه الى أبي خليل يضع مجموعة من الأضابير على مكتبه وهو في طريقه الى الباب. بقي ينظر اليها. هنا حياته، على هذه الكومة من الاوراق، رغم كل المحاولات لنكران ذلك. لو فصل، لأيّما سبب، من وظيفته لمات جوعاً، لماتوا جوعاً. هو وزوجته وطفله الذي لم يولد. من يمكن ان يسرع حاملاً اليهم لقمة الخبز وهم في غرفتهم المنعزلة من ذلك المنزل العتيق الذي يسكنونه؟

إن أهله وكذا أهل زوجته لا يعلمون أين تقع الدار الخيالية التي يحدثهم عنها في بعض رسائله اليهم. لقد طلبوا منهما المجيء الى بعقوبة، فحاول ذلك مراراً، الا ان كل محاولاته كانت تكشف له وحدته بصورة مستمرة. لا أحد معه، ولا مخرج له. إنه لم يعتد على حياة القصور، ولكنه ـ من جهة أخرى ـ لم يعش هكذا من قبل في غرفة صغيرة مع إنسانة يواجهها ليل نهار ولا يستطيع الإخلاد لحظة الى نفسه او الى كتبه القديمة. ولذلك صغرت نفسه مثلما صغر عالمه، وانحصر اهتمامه بالأصوات الغامضة التي يحدثها

جارهم سيد هاشم، وبضوضاء المعارك في الطابق الأسفل، وبالجنين وحركاته وثيابه. ولكم حاول ألا يسيطر عليه هذا العالم الضيّق المريع، دون أن يعلم السبب في هذه المحاولات. لم لا تتناسق نفسه، أفكاره وعواطفه، مع المجرى المظلم لهذا العالم التعيس؟ أهي حساسيته أيضاً؟ أهي قراءاته الماضية؟ أهو تركيبه الخلقي ومزاجه؟

قبل أيام وبعد جهاد مع كبريائه طلب من جارهم سيد هاشم ان يقرضه عشرين ديناراً. كان يعلم ما هي مهنة هذا السيّد المزيف، وكان يعلم فحوى جوابه منذ البدء، الا أنه أصيب، رغم علمه هذا، بطعنة في كرامته حين طلب سيد هاشم قطعاً من الذهب يرهنها لديه. ولم يعرف السبب الذي دعاه الى الاعتقاد بأن مرابياً مثل سيد هاشم سيتنازل عن قواعده الصلبة في حالته هو بالذات.

كانت يداه تعملان في الأوراق على مكتبه دون كبير انتباه منه، وكانت في الاستكان بقية من السائل الأحمر ومن قطع الشاي السوداء. إن هذا النصب الصغير من الزجاج يرمز لحياته - دين غير مدفوع، عمل لم يتم. إنه لم يكمل مشروعاً مهماً في حياته. كل شيء يموت بين أصابعه فجأة، ولا تبقى له الا الحسرة على إمكانية لا يدري أكان يملكها ام لا. ولكن الناس ينخدعون به أغلب الاوقات. تخدعهم مظاهر الإخلاص والبراءة في وجهه ويأخذونها على أنها علائم قوة وإيمان. وهذا الشاب الذي استنجد به صباح اليوم أحد هؤلاء المخدوعين. وعادت اليه صورة كئيبة

للشاب الأسمر وللنظارات السوداء الكبيرة والأكتاف الضخمة. شعر برغبة في التأمّل فتوقف عن عمله وأخذ ينظر الى أصابعه. إن الإيمان بالإنسانية يحمل في طياته إيماناً بوجود الشرّ وبوجود هذه الآلام الفظيعة التي ترهق البشر؛ وهذا الإيمان لا يمكن أن يكون منطلقاً لقوة إيجابية. إنه يضعف حامله، ينخر قلبه وفكره بهدوء ويتركه لا يعرف ما داؤه؛ ولذلك، ولم يصدق ما خطر له، ولذلك لا يمكن القول مسبقاً إنه كان يستطيع مساعدة الشاب المريض لإحساسه بضعفه وعجزه. لعله كان قادراً، ولكن النتيجة لم تكن محققة.

كان الضوء من الكوة الزجاجية في السقف ينساب مختلطاً بالغبار ويسقط على الأضابير المتراصّة، وكان مكتب ابي خليل خالياً منه، واصوات الشارع القريب مبهمة كأنها آتية من عالم آخر. ماذا سيعمل حين سيقبل عليه من عالم مجهول غامض طفل لم يرده ولم يفكر به يوماً؟ اين سيذهب بزوجته لتساعد على عملية الخلق هذه؟ من اين يأتي بكل هذه النقود؟

ان أهله وأهل زوجته أفقر من ان يستطيعوا ارسال فلس له، وليس بمقدور احد منهم المجيء الى بغداد. فأمه عجوز مريضة تعتقد ان في مفارقة بعقوبة مفارقة للحياة، واختها ـ ام زوجته ـ مصابة بشلل كلي، وهي فوق هذا أصلب عناداً من امه في اعتقادها بعلاقة الحياة ببعقوبة. اما والد زوجته فانه بحاجة الى النجدة أكثر من ابنته. ان داء

تغلب فيه قد يقضي عليه في أية لحظة. وهكذا ببساطة تغلق الأبواب. كل أقربائه مخلوقات عاجزة لا يعلم أحد كيف ولماذا تعيش، وأية معجزة ستحقّق في يوم من الأيام.

دفع الباب وأطل عبيد برأسه:

- ماشي أشرب چاي سيد محمد

فهز رأسه موافقاً. هل يذهب بها اليهم؟ إنها تلمح له بذلك ، وهي تخشى أن تموت اثناء الولادة. ولكنها لا تصرّ على فكرتها هذه، لأنها تود من أعماق قلبها أن يعتني بها في أحد المستشفيات النظيفة الفخمة في بغداد. وهذه الرغبة تؤثر في نفسه كلما شعر بها. وهو يراها في القلق المتخافي في عينيها السوداوين كلما دار بينهما حديث عن الطفل والولادة، وعما يمكن أن يعملاه استعداداً لذلك. إنها تضع يديها باستسلام فوق بطنها المنتفخة وتنظر اليه كأنها تبحث في قضية خاسرة. ثم تتنهّد بعد ذلك حين يورد لها فكرة عن الأسعار التي تستوفى في المستشفيات. وكان يحس، في هذه اللحظة بالذات من حديثهما، برغبتها الطبيعية الدفينة التي لا تجد تحقيقاً لها. ولكنه لم يقل لها يوماً إنه سيحاول جهده لأدخالها أحد المستشفيات، لأنه يعلم منذ البدء ان ذلك لن يقدم خطوة. ماذا يجب ان يعمل؟ ومنذ متى كان يجب ان يبدأ الاصلاح لكي يستطيع هو الآن ان يدخل زوجته المستشفى دون ان يدفع أجوراً باهظة؟

إن آباءه لم يعملوا شيئاً لأجله، ولذلك تضخّم العبء على كتفه فسحقه. كان مسحوقاً قبل أن يولد. وماذا يعني،

بعد كل هذا، أن الإنسان يملك أن يعمل كل شيء؟

أفزعه انفتاح الباب بسرعة وعنف ودخول ابي خليل كالعاصفة. وقف وسط الغرفة واضعاً السيجارة في فمه، ومن طرف أنفه تتدلى قطرّة لامعة. هتف وهو يشير بذراعه ويفتح عينيه:

- ابو جاسم، القيامة قايمة بغرفة الملاحظ

ابتسم محمد جعفر بسكون:

- خير انشالله

فاخرج ابو خليل منديله ومسح انفه:

- الكون كله موجود بغرفة الملاحظ. ملكة الجمال العالمي گاعدة يم حضرة الاخ الملاحظ.

وسار الى مكتبه فجلس اليه:-

- اخوك وكَف صافن على زمانه. باوعت علي، أصابني خفقان. شفت احسن طريقة اتراجع بانتظام. وبالفعل نفذت الخطة. رأيك بجبن وشربت زبيب وصمون على هالخبرية الممتازة؟

فهزّ رأسه دون كلام. نادى ابو خليل الفراش عبيد وأعطاه نقوداً لشراء هذه الوجبه التي لا اسم لها من الأُكل. من يدري، لعل ابا خليل، في نهاية المعركة، هو الفائز، هو الفاهم لحقيقة هذه الحياة. وسحقاً بعد هذا لكل الأحاسيس الإنسانية ولكل الإمكانيات التي لم تحقق.

قال ابو خليل وهو يستخرج رزمة من أغلفة الرسائل:
- ماكو شغل زايد اليوم. خلي نشتغل بهوايتنا الخاصة

ثم بدأ بوضع الطوابع الملصقة على الظروف في إناء مليء بالماء. إنه يسميها هوايته الخاصة، وهو حين يتكلم عنها يظهر نفسه بمظهر من يهوى جمع الطوابع. وكل ما فيها هو تمزيق الطوابع من الرسائل وتنظيفها ثم بيعها في اليوم التالي لجمع مصرف جلسة شراب متواضعة.

كانت الأوراق على مكتب محمد جعفر قليلة، وكان استكان الشاي منزوياً في ركن من المنضدة. خطر له أنه مكتئب وأن فرحة الصباح لم تدم طويلاً. كانت ضوضاء الشارع خافتة وحزمة الشمس منكمشة على تراب الأضابير العالية. لم يشعر بميل للاشتغال او للقراءة. قال ابو خليل:

- هذا المطي عبيد راح يتأخر، وداعيك الجوع دايسه
ومسح أنفه ثم استمر في تمزيق أغلفة الرسائل.

(٢)

كان جو المقهى داخناً مليئاً بضجّة لا تخمد، وأضوية النيون الحليبية تضفي صفرة قبيحة على أوجه الجالسين السمراء. وكان يحس بخشب التخت يقضم عظام حوضه. مرت عليه ساعة طويلة في جلسته هذه يراقب الشارع والمارة، والملل والقلق يفترسانه على مهل منهما. مد يده الى جيبه الأيمن وتحسّس الكيس الورقي والأساور ومحابس الذهب التي يحتويها، فشعر بانزعاج خفي يداخله. هذا هو كل ما يملكان: كل ما يمكن ان يثير فضول الناس فيهما. لقد قدم بعضه هدايا لزوجته، هداياه البائسة، والبعض الآخر جاءها من أهلها الذين لا يملكون شيئاً. ولقد استرجعه منها بأسرع مما توقع.

مر أمامه صانع المقهى اسماعيل وهو ينادي بحيوية زائدة:

ـ ماي، ماي

كان قصيراً نحيلاً، يلبس ثياباً زرقاء ويضع يشماغاً فوق رأسه ولحيته بيضاء قصيرة. ناداه:

ـ ابو حقي. فد گلاص ماي

فاسرع اسماعيل الى صب الماء من قربة غريبة الشكل وقدم الكأس الى محمد جعفر ثم مسح يده بثيابه،

- آني ممنون لابو جاسم

- اشكركِ

وأعاد اليه الكأس سائلاً:-

- ما شفت سيد هاشم، ابو حقي؟؟

فتأمل اسماعيل الكأس برهة ثم سكب بقية الماء على ارض المقهى:-

- سيد هاشم يحضر ساعة بالتسعة

ثم مضى. كانت الساعة في المقهى تشير الى ما قبيل السابعة بعدة دقائق. لا فائدة من الانتظار في هذا الجو المرهق. تحسس الكيس الورقي مرة اخرى ثم قام فخرج بعد ان دفع حسابه.

كان الهواء بارداً في الشارع فلفّ السترة على جسمه ووضع يديه في جيوبه. لم يفارقه ألم المعدة منذ العصر، ولا يزال يزيد في ضيق عالمه عليه. نزل بضع درجات متعكرة ثم شعر بالأرض تنحدر تحت قدميه. واجهته ظلمة الأزقة فجأة. ان منزلهم العجوز يختبيء في إحدى هذه الملتويات، حيث يكمن هو وزوجته في زاوية عالية موحشة منه، لا يريان فيها غير الجدران الصامتة ولا يسمعان غير الأصداء. إن النزلاء يتعشّون الآن، كأنهم على موعد مع بعضهم. تبدأ أم سليم بتحضير أدوات الطبخ فيسرع الأكراد الذين يسكنون الطابق الأرضي الى إشعال مواقدهم.

كانت جدران الزقاق عالية متقاربة، لا تترك من السماء الا شقاً مضيئاً أزرق. ولم يكن محمد جعفر يميز بعينيه

برك المياه الآسنة ولا الحفر والسواقي، ولكنه كان يتلافاها بغريزة اكتسبتها قدماه. ماذا حاول أن يصنع أصحاب هذه الدور حين بنائها؟ أكانوا يحبون بعضهم بعضاً فجعلوا حيطان بيوتهم تكاد تتعانق؟

وكانت رائحة الدهن المحروق والبصل تملأ أنفه. إنهم يتعشّون في كل مكان. لا يمكنهم ان ينسوا المحافظة على استمرار الحياة في أجسامهم. وكان يسمع اصواتاً مرحة من بعض المنازل وعراكاً او أغاني عربية من الأخرى. أهم أشقياء حقاً، أم متعبون تعب الحمير فقط؟

وكان يحس مللاً مريعاً من كل شيء. ملل لا يشعر به الناس الذين يعايشهم. إنه لا يرى على وجوههم إشارات هذا الداء الوبيل. كلهم مثل ذلك الكهل الذي اعتاد أن يراه، والذي رآه مساء اليوم ايضاً. يجلس امامه متطلعاً الى خارج المقهى بنظرات ثابتة لا يمكن تفسيرها. لم يكن على وجهه أيّ انطباع ولم تكن في عينيه اية عاطفة. إنه عاجز عن الشعور بالملل والقلق اللذين يأكلانه هو. انه لا يعيش، الا انه لم يكن شقياً. مثل قطتهم حين تتكوم على نفسها ساعة او بعض ساعة؛ لا تعمل شيئاً ونظراتها ضائعة في فضاء غير محدود.

سمع صوت ام سليم الدافىء قبل ان يدخل الدار. رآها تقف وسط الحوش تحدث امرأة اخرى لم يميزها. سلم عليها:

ـ مساء الخير ام سليم

فالتفتت اليه:

ـ مساء النور عيني ابو غايب

كانت طويلة ممتلئة الجسم، ذات أكتاف عريضة وجدائل متينة من الشعر الأسود تظهر من تحت فوطتها الرقيقة. ولم تكن تجاوز الخامسة والثلاثين، لكن عدد أطفالها لم يقل عن الستة رغم الموت الذي يفاجئهم أغلب الأحيان.

سمعها تعود الى إكمال حديثها. لم يكن صوتها مألوفاً في نساء يعشن مثل حياتها. كان صافياً، متوثباً بأنوثة تخاطب كل الرجال. وكان يحنق كلما انتبه على نفسه وهو يصغي بلذة الى صوتها. تعثر بدرجات السلم الأولى فسمع ام سليم تهتف:

ـ دير بالك عيني ابو غايب. تره ما صلحناها للدرجات بعد

فلم يجب وتمسك بالحائط ثم أخذ يصعد السلّم بحذر.

بقي واقفاً في الفسحة التي تلي السلم المتهاوي. كانت السماء صافية ملساء وغرفة سيد هاشم مظلمة. تنفّس بعمق وهو يراقب بعض النجوم التي ينبض نورها برتابة. ماذا يجري هناك، في هذه الأكوان الأزلية؟

لقد خلا قلبه من الإيمان، لكن السماء القاصية لبثت

تثير كوامنه وأحلامه؛ صفاؤها اللامتناهي ولونها الشفاف الأثيري. ولكم تبدو آلامه واهتماماته بغير معنى حين يخطر له الخلود الذي يلف هذه الأشياء العظيمة البعيدة.

كان الضوء في غرفتهم يصبغ الحيطان المتآكلة بحمرة قاتمة، وكانت زوجته جالسة في السرير وقد رفعت اللحاف الى وسطها. سألها:

ـ خير انشالله سعدية؟

وانتبه الى سليمة ابنة ام سليم وهي تقف اذ رأته داخلاً. كانت صفراء الوجه صفرة شديدة وعيناها واسعتين داكنتين. قال:

ـ ها سليمة، انت هنا؟

وكانت في الخامسة عشرة من عمرها، لطيفة ساكنة حالمة النظرات، يخفي جسدها أنوثة تتفتح يوماً بعد يوم. أجابته زوجته:..

ـ اي. آني صحت عليها. شوية حسيت مالي خلك وصحت عليها تگعد يمي

ـ شبيج؟ دتحسين بشي؟ أصيح ام سليم؟ لو اذا..

فقاطعته:ـ

ـ لا. لا عيني محمد. ماكوشي. شوية تعبانة چنت بس. وين رايحة سليمة؟

وكانت هذه متوجهة نحو الباب، نحيلة ذات خصل من الشعر قصيرة:

ـ راح انزل أتعشى

ثم فتحت الباب واختفت. سألته زوجته:

ـ شفت سيد هاشم؟

فأجابها وهو يقترب منها وينزع سترته:.

ـ لا والله. يجي ساعة تسعة بگهوة حسن عجمي. شكو عدنا للعشا؟

كان وجهها مدوراً شاحباً يحيطه شعر اسود كث يرتمي على كتفيها، وكانت بطنها عالية تحت اللحاف الازرق. قالت:

ـ اكو شوية شوربة عدس وسبيناغ. اذا تريد احميها انت عيني محمد. آني ما أگدر اكوم.

فهمهم:

ـ زين. زين

وسمعها حين توجّه الى المنضدة التي صنعوا منها مطبخاً:

ـ تدري، هاي سليمة هواية تونس. حچت لي اليوم شلون تاكل الصابون

أخبرتهم أمها بذلك في الأيام الأولى من مجيئهم، أثناء كلامها عن المصائب التي تنزل بها بين زمن وزمن. استمرت زوجته:

ـ تگول ما ادري لويش آكله. هو مو طيب
ثم ضحكت ضحكة قصيرة:

ـ وتگول كل ما أشوف صابونة، ما أحس على نفسي الا آني دا آكلها. صدك يعني هذا؟ امها هواية تبسطها على مود الصابون. ما راح تحميها للشوربة؟ اگوم آني؟

كان ضجراً بعض الشيء:
ـ لاع . ماكو حاجة. الدنيا مو كلش باردة
وشعر بطعم الحساء البارد في فمه.

هو أيضاً يأكل بعد مغيب الشمس، ويحافظ بانتظام وإصرار على جريان الدم في عروقه. ولكنه أيضاً، ولغير سبب واضح، يعتبر نفسه يقوم بعمل آخر لا يشابه أعمال كل هؤلاء الناس، ام سليم وجيرانها الاكراد وسيد هاشم وبقية البشر. انه لا يعيش حياته كما يفعلون هم. وتذكر الشاب ذا النظارات السوداء الكبيرة. الا ان البراهين تعوزه ليثبت ذلك. وما حاجتنا للبراهين؟

شعر أنه متعب، غير قادر على الإتيان بأعمال عظيمة. لقد كان هكذا منذ أحس بنفسه وبدأ يراقبها. يكتفي بهذه الفكرة السقيمة عن نفسه ويترك للأعمال وللآخرين أن يقرروا ما يشاؤون بشأنه.

سمع زوجته:
ـ يعني هذا سيد هاشم راح ينطينا العشرين دينار؟
فسيطر عليه ضيق بسيط وهو يفكر في جواب لسؤال

زوجته. قال:

- لويش لا؟ شنو، قابل دنستجدي من عنده؟

لم يكن يرى وجهها، لكنه أحس بالانكسار في صوتها:

- لاع. دا أكَول. يعني اخاف..

وقطعت كلامها. كان هو قد كف عن تناول طعامه حين بدأت حديثها، وبقي يتطلع الى الأشياء الموضوعة على المائدة دون أن يراها. هل في تكوين عقله عيب يمنعه من فهم الأمور على حقيقتها؟

لقد ظن أن الاستدانة من سيد هاشم لن تجعله في مركز ضعيف، ما دام يقدم اليه فائضاً وذهباً يرهنه. كان الاسبيناغ مغطى بطبقة خفيفة بيضاء من الدهن الجامد وبعض قطع من اللحم تنتشر عليه. الا أنه يجب أن يعترف بأنه شعر - شعر فقط - بأن مشروعه هذا لا يخلو من مهانة. ويبدو أن زوجته تتكلم بلسان هذا الشعور المرير الظالم. وضع الملعقة في صحن الشوربة واتكأ على الكرسي بظهره. كان يسمع تنفّس زوجته خلفه. إنهما يخسران مرتين في هذه الصفقة. يخسران نقوداً ويخسران جهداً عاطفياً. كان هو أيضاً يخسر مرتين في قضايا رئيسية مرت عليه. فلقد بذل جهده، قبل سنوات، كي يجتاز امتحان البكالوريا الاعدادي، وكان اهله جميعاً يثقون بانه سنيجح بسهولة.

لكنه خسر مرتين، خسر جهده وخسر عواطفه ومشاعره الطيبة التي أُفسدت عليه؛ ورسب. أحزنه بعد ذلك أن أهله ومعارفه لم يدركوا مطلقاً المعنى الذي يكمن وراء فشله. المعنى الذي لم يستطع تفسيره لنفسه بوضوح، بل عاشه خلال سنوات طوال تلت.

سمع صراخاً وضجة مشاجرة تصل أُذنيه من الطابق الاسفل.

قالت زوجته:
- هم بدوا
فالتفت اليها:
- هذولة من يشبعون يتخبلون
فابتسمت زوجته بهدوء. كانت على وجهها انطباعة حلم عميق وهي تضع يديها فوق اللحاف الذي يغطي بطنها. سألها برفق:
- شلونچ هسه؟
فهزت رأسها:
- زينة
قام فلبس سترته ثم تحسس الكيس الورقي:
- آني راح اروح للگهوة. ارجع بعد فد ساعة. تردين شي؟
- لا كل شي ما أريد. بس گلها لام سليم بلكي

تصعد يمي. آني ما أگدر انزل اليوم. أشو ما أكلت شي؟ شبعان؟

فلم يجب واتجه نحو الباب. سمعها:

ـ دير بالك عيني محمد على الذهب

كان صوتها مرتجفاً بعض الشيء، ورأى في عينيها السوداوين قلقاً طافحاً. هز رأسه دون كلام وخرج.

كان متألماً وهو ينزل السلم المتهدم؛ وكان يحس أن هذا الألم لو ازداد لأمكن ان يقتله دون كبير مقاومة. إنها تخشى على ذهبها، لأنه كل ما تملك. ولكنها تعلم أنهما في موقف منهار، ولذلك استسلمت. وكان هذا فوق طاقته، أن يشعر أنها ضحية دون سبب اتهام. كان الحوش مُضاءً بلمبة صغيرة علقت فوق باب ام سليم. سمع الضجة والصراخ يرتفعان من داخل غرفة الأكراد. رأى سليمة تغسل يديها بهدوء في الظلام، فكلمها:

ـ سليمة؟

فالتفتت اليه. رأى عينيها اللامعتين وخدها الاملس. بقيت تنظر اليه، فاستمر:

ـ تگدرين تصعدين يم سعدية ؟ انت وامچ؟

فهزت رأسها بالايجاب وعادت الى غسل يديها. لم يجد ما يقوله لها فمضى خارجاً.

كان الزقاق الضيق ساكناً، تضيء بعض منعطفاته مصابيح كهربائية حمراء. خف ألم معدته قليلاً بعد اللقيمات

التي أكلها، لكن الضيق في صدره لم يفارقه. أيمكن ان يكون مسؤولاً عن استسلام زوجته المؤلم؟

ان هذه الفكرة هي التي تكمن وراء ألمه. وتبادرت الى ذهنه صورتها وهي في جلستها الاخيرة على الچرپايه الذهبية ذات الاعمدة اللامعة. هل يمكن ان يتخذالاستسلام شكلاً آخر؟

ان شفقته الشديدة عليها يخالطها اشتهاء عنيف لجسدها، الا ان هذا الاشتهاء لا يخفف من تأثير الشفقة عليه. وهو يحس بعطفه يؤلم قلبه ولكن، ما السبيل للخروج من هذه الدائرة المتصلة باحكام؟

كان مقهى حسن عجمي يشع بأضواء النيون الموضوعة في كل مكان، وكان الجو لا يزال مليئاً بالدخان. لم ير سيد هاشم بين الجالسين القليلين، ولمح الساعة تشير الى الثامنة والربع قبل ان ينتحي زاوية لا يجلس فيها احد. كان دفء المقهى بديعاً، وكان مرتاحاً رغم تحت الخشب البارد الذي يقعد عليه. طلب شاياً خفيفاً وخطر له ان ذلك قد يساعده على السهر ليقرأ بعض الشيء. لم يفتر حبه للقراءة مع هذه الظروف السيئة التي تحيطه، وكان ذلك باعثاً على ثقة جزئية في نفسه. كان الوقت متوفراً لديه في بعقوبة بشكل لم يتوقع معه ان زواجه قد ينقص من هذه الوفرة. الا ان الحقيقة قد تختفي آخر الامر في ابعد الاحتمالات. فها هو لم يمسك كتابه منذ ثلاثة ايام؛ وقد مر

شهران على شرائه واحداً جديداً. ومن يعلم، فلعله يعطي القراءة اهمية لا تستحقها. ان زوجته لا تفتأ تذكره بأنهما لا يجنيان شيئاً من وراء قراءاته؛ وهي لذلك تحثّه على إيجاد عمل له بعد الدوام الرسمي. ولقد رفض اقتراحها، الا انه بدأ يفكر في فائدة القراءة له. إنها لا تزيد إلا وساوسه وأحلامه وشعوره بالفشل. ورغم أنها تفجّر في نفسه أحاسيس فذّة بحيوات الآخرين، إلا أنها لا تفعل ذلك إلا لتكشف له عن الموت وعن العبث. وهو بعد هذا لم يجد يوماً ما حلاً لإحدى مشاكله فيها، مشاكله المادية خاصّة. وإن كان يبدو أمراً سخيفاً أن نقرن الكتب وقراءتها بقضية جمع المال. ان هذا كمن يعطي سيد هاشم كتاباً لبرغسون ليقرأه ويبدي فيه رأياً صائباً.

أحسّ بنفسه يميل الى الابتسام لهذه الفكرة. في الحقيقة، ماذا يعني العقل الأدبي والخلق الأدبي والمجهود الأدبي كله في نظر شخص مثل سيد هاشم؟

إن جوابه قد يكون تافهاً، ولكنه سيكون مخلصاً فيه. أليس في هذا الموقف طرح لقضية الأدب بأجمعها؟ فمن يعلم من هو المصيب من اثنين - شخص يفني حياته في سبيل تحقيق غاية أدبية قد لا ينالها في النهاية، وآخر تفنى حياته وهو يجهل باطمئنان أن هناك ما يسمى ادباً؟

كان استكان الشاي قربه فارغاً على المنضدة الصغيرة المحروقة بأعقاب السجاير، وكان اسماعيل يسير ببطء بين

قنفات المقهى منادياً عن مائه. لم ير لسيد هاشم اثراً، وليس هناك من يستطيع ان يؤكد حضوره هذه الليلة، لأن الشيء الوحيد الذي يضمن ذلك هو استحقاق كمبيالة او فائضها. شعر بنفسه يسخر بمرارة لهذه الفكرة. أمعنى هذا ان سيد هاشم مطمئن الى تنظيم حياته وفق هذا القانون الذي يسترشد به؟ وانه لا يشعر - لا يمكن ان يشعر - بأي قلق من ان تكون وجهة نظره خاطئة من الأساس؟

كان نحيلاً ككومة عظام، يرتدي ملابس عتيقة مهلهلة ويضع سدارة مغبرة سوداء فوق رأسه. رآه يدخل المقهى اثناء ما كان يفكر به. اسرع اليه اسماعيل وأمسك بذراعه هامساً في أذنه كلاماً ما ثم قاده الى الجهة التي يجلس فيها محمد جعفر. كان ذلك آخر الامر سيد هاشم. وكان يمسك بعصا ونظره متجه نحو الأرض بصورة مائلة. هتف حين اقترب من محمد جعفر بصوت أخن:

- السلام عليكم

لم تكن لحيته المليئة بالشيب محلوقة. امسك هو بعصاه واجلسه قربه على القنفة:

- وعليكم السلام. تفضل سيد هاشم، تفضل. الله بالخير

فرفع يده نحو رأسه مجيباً:

- مساك الله بالخير سيد محمد. شلونك؟

- الحمدلله. انت شلونك سيد؟

ـ ادعي لك بالخير، الله يديمك

كانت عيناه مدفونتين، لا يبين منهما الا خطان اسودان، ووجنتاه بارزتين يغطيهما الشعر الأشهب. كيف يمكن ان يعامل مخلوقاً كهذا؟ اقترب منهما اسماعيل:..

ـ مساك الله بالخير سيد. ماي؟

فرفع يده دون نظره:

ـ كالله بالخير ابو حقي. اي والله فد گلاص ماي الله يخليك

كان يتكلم من انفه العظمي. قال له اسماعيل بعد ان شرب كأسه:

ـ هنيئاً سيد هاشم

فأجابه وهو يمسح فمه بكمه:

ـ هناكم الله مولانا. فد چاي بالله ابو حقي. سنكين الله يرحم والديك

ـ ممنون آني للسيد

ومضى. كيف يمكن ان يبدأ في معاملة مخلوق كهذا؟ وكان سيد هاشم يجلس وظهره منحن ويداه على قمة عصاته. قال له محمد جعفر:

ـ دا انتظرك صار لي ساعتين سيد هاشم

فأجابه دون يتحرك:

ـ خير انشالله. چنت دا أصلي صلاة العشا. اي بالله، صلاة العشا. بعد شلونك سيد محمد؟ ما دنشوفكم هالايام؟ احنا جيران

ـ اشكرك. مشغول شوية

ماذا يبقى لهذا الانسان لو انتزعت منه كل امواله، كل آلاف الدنانير وحجج الدور والكمبيالات التي يملكها؟ سيبقى له غذاؤه الذي لا يصرف عليه قط وستبقى له ملابسه التي يأخذها من أقربائه وأصدقائه؛ ولكنه لا بد أن يموت. لا يمكنه أن يحيا دون أمواله رغم أنها لا تدخل في حياته. لقد فضّل أن يفقد بصره على أن يصرف فائض سنة على مداواة عينيه. ولكن، أفي هذا معنى ما؟

كان يمتص الشاي بصوت عال وحنجرته ترتفع وتنخفض. رأى ياقة ثوبه قذرة منكمشة على نفسها.

سأله:

ـ شايل عشرين دينار سيد؟

فانقطع عن شرب الشاي حالاً، ثم كرعه دفعة واحدة ووضع الاستكان بحذر قربه على حصير القنفة:

ـ لا والله. خير انشالله. ماكو هالايام فلوس

فشعر محمد جعفر بخوف مفاجيء يتملكه لحظة:

ـ موآني جايبلك الذهب سيد

فحرك هذا رأسه من اليمين الى اليسار:

ـ والله ماكو فلوس سيد محمد. خير انشالله

ثم اردف بعد هنيهة:

ـ شايله وياك ؟

ما كان أسخف قلقه! اخرج كيس الورق من جيبه

ووضعه فوق كف السيد:

- انت موگلت لي

فتشبث سيد هاشم بالكيس ثم فتحه برفق وراح يخرج الذهب قطعة قطعة، فيرفعها الى عينيه ويتأملها لحظات ثم يعيدها الى مكانها. كانت اصابعه رفيعة عظمية وأظافره سوداء طويلة، وكان الذهب شيئاً غريباً بين أنامله. ذهب سعدية، تلك الضحية التي اختارت مصيرها.

قال سيد هاشم بعد ان أنهى فحصه وبقي ممسكاً بالكيس:

- شگد تريد ؟

- عشرين دينار

- خير انشالله. ماكو فلوس هالايام سيد محمد. هواية عشرين دينار على چم قطعة ذهب مو صافي

- شنو مو صافي؟

ولكنه أدرك حالا اي باب سخيف فتحه بهذا السؤال، فاردف:-

- آني محتاج عشرين دينار سيد هاشم. عندي ولادة ولازم احضر هالمبلغ.

فهز السيد رأسه مرات وقال مهتماً:

- عندك ولادة ؟؟ على الخير، على البركة. انشالله بالسلامة. والله آني سمعت من ام سليم. لاكت عشرين دينار مو هواية سيد محمد؟

ودلو أهوى على هذا الرأس الفارغ بالعصا، كي يبعد

صاحبه عن نظره باسرع ما يستطيع. هتف بحنق:

- سيد هاشم، انت رجال وآدمي. ليش متعرف عشرين دينار مو هواية على مصاريف الولادة؟ اذا ما عندك فلوس گل لي سيد هاشم بالله

فعصر، ذلك السيد المزيف، كيس الذهب بشدة وتراجع قليلاً الى الوراء:

- لا تصيح مولانا ابو جاسم، شلون ما عندي!

ثم سكت لحظات قبل ان يقول بصوت منخفض ناعم:

- تره ناخذ بالميه عشرين

- هاي شنو ؟ شدعوه ؟

- والله ما أكدر سيد محمد. ما أگدر اتساهل أكثر. اكو جماعات دياخذون بالميه خمسة وعشرين. هذا گرايبك عبدالوهاب ابن حجي رزوقي، تعرفه؟ دياخذ بالمية خمسة وعشرين. صاير. رجال مولانا وعنده ثلاثين حجة بيت، ودياخذ وينطي

- لا تخششنا بأيراد ومصرف سيد هاشم. اخذ بالمية عشرة

- لا وداعتك ابو جاسم. ميصير، ما أگدر. ما يصرف. اذا ما يعجبك..

- زين. بالمية خمصطعش

فوضع سيد هاشم الكيس بهدوء في احدى جيوبه، ثم مد يده الى جيب آخر عميق فأخرج حزمة من الدنانير

واوراق الكمبيال الفارغة. سلم عدة اوراق الى محمد جعفر:

- امليها يابه. اربع دنانير بالشهر. هاذي كل كمبيالة بعشر فلوس. شايل طوابع؟ صيح على اسماعيل يشهد ودزنا على چاي

كان مسروراً حين ترك المقهى خلفه وواجه ظلمة الزقاق، وكان يدرك ان سروره السقيم هذا متأت من حزمة الدنانير التي يحس ضغطها على صدره؛ الا ان ادراكه لم يقلل قط من خفة قلبه.

من يدري ماذا سيستطيعان عمله وشراءه بهذه الكمية الضخمة من النقود!

كان الهواء بارداً وبعض الروائح الكريهة تنبعث من الزوايا المظلمة؛ وكانت نوافذ البيوت تقطع ارض الزقاق بخطوط ضوئها. رأى باب منزلهم مغلقاً فدفعه بهدوء ودخل. كان الحوش ساكناً خالياً، فخطر له ان اطفال الاكراد يغطون في نوم عميق. ادهشه ان يجد ام سليم وسليمة جالستين قرب زوجته. كن مشتركات بحيوية في حديث قطعنه عند دخوله وهن يتبادلن النظرات اللامعة. كانت ام سليم ترتدي ثوباً من الحرير الناعم يشد جسمها الممتلىء ويظهر حناياه. أحس رقة غير اعتيادية في صوتها المغري وفي نظراتها اليه. لم تبقيا غير دقائق وانصرفتا. سألته زوجته بعد ان اغلق الباب وراءهما:

ـ ها، محمد؟ أخذت؟

كانت لا تزال جالسة في مكانها واللحاف يغطي وسطها. قال:

ـ اي

واقترب منها ثم اخرج الدنانير فوضعها في حجرها. أحصتها وابقتها بين يديها ثم نظرت اليه بعينين واسعتين:

ـ شگد اخذ فايز؟

كان خداها مدورين صقيلين وخصل من شعرها تلامس جبينها. أمسك بيدها:

ـ شعليچ. عدنا هسه فلوس تكفينا

انحنى عليها فرفعت له فمها فقبل الشفتين الناعمتين. شم فيها رائحة صابون معطر وضغط بفمه على شفتيها. شعر بدوار بسيط في رأسه؛ أهو يشتهيها بهذا العنف؟ كانت اصابعها مستسلمة لقبضة يده، وكان يعلم انها تستطيع ان تستلم بكليتها اليه. همست حين رفع وجهه عنها ـ

ـ نگدر نشتري شوية غراض للجاهل؟

فهز رأسه بالايجاب. كان ينظر الى رقبتها وشق ثوبها واللحم الابيض الناعم بين ثدييها. ابتسمت امام عينيه وعصرت يده:

ـ ونحجز غرفة بالمستشفى؟

ثم سكنت برهة وهي تتأمله مبتسمة وعادت تهمس:

ـ اشتئنا؟؟

فأشار برأسه دون كلام وانحنى فقبل شفتيها مرة اخرى ورقبتها الحارة. لم تقل شيئاً، لكنه أحس بغموض انه على وشك ان يفقد رقابته على نفسه. قال وهو يعدل قامته:

ـ تگدرين تطلعين للمسواك هالأيام؟

ثم ابتعد عنها، فعادت اليها حيويتها وفرحتها:

ـ اي. ليش ما أگدر؟ بلكي تجي ويايه سليمه تشيل الغراض.

فبدأ ينزع سترته:

ـ أحسن

ثم سمعها تضحك ضحكة قصيرة وتهتف:

ـ تدري شتريد منك ام سليم؟ أحزر

فتصور ثوب الحرير الضيق وحنايا اللحم المغرية وبقي مستمراً على نزع ثيابه:

ـ خير انشالله، شتريد؟

ـ أتگول بلكي تقنع سيد هاشم يأخذ سليمه

فتوقف لحظة:

ـ شنو؟ سيد هاشم يتزوج سليمه؟ مجنونه هاي؟

فاندفعت زوجته في كلامها ووجهها مليء بامارات سرور خفي:

ـ شمدريني. اتگول ولو ينطينا خمسين دينار بس متقدم

كان مشمئزاً منزعجاً، الا انه شعر ان حالته النفسية تسمح له بتقبل هذا الأمر. سمع زوجته تعود الى حديثها

وهو يلبس دشداشته:

- تدري، هذا سيد هاشم متزوج مرتين؟ يگلون كل نوبة يموّت مرته من الجوع ويخليها تنهزم من عنده. ويبين ام سليم تعرف هالحچاية.

صحك بارتياح:

- أشو انت هم متونسه؟

- آني شنو. ام سليم گاعده تحچي. جوا عندي بعثة

كان ضوء اللمپه احمر ضئيلاً فسار اليها و زاد من قوة ضوئها:

- هذوله ما يستحون يتعاركون على فلوس الكهرباء ويخلوهم يگطعوه؟

همت زوجته بالكلام حين ارتفع وقع خطوات قرب غرفتهم. قالت هامسة:

- هذا سيد هاشم

كانت عصاه تضرب المحجر بين لحظة وأخرى وسمعاه يهمهم «الله اكبر. ايه. لا حول ولا قوة الا بالله. الله اكبر» قبل ان يفتح باب الغرفة المجاورة بضجة ثم يغلقه عليه. قالت زوجته باهتمام وجد:

- تگول ام سليم اذا صارت مسئلة سليمه هي ترجع الكهرباء للبيت

فضحك هازا رأسه ولم يجبها. سكنت لحظات وهي

تراقبه بسرور وتعبث بالدنانير بين اصابعها، ثم قالت:

ـ تعال شويه يمي

وضربت على الفراش قربها ضربات خفيفة:

ـ تعال هنا نتحاسب شويه

فأجابها وهو يهم بالجلوس على كرسي قريب من اللمبة:

ـ اريد اقرأ. اجليها لباچر

فألحت:

ـ لا مالله. تعال هسه، ما شفناك اليوم

وعادت الى الضرب على الفراش وهي تبتسم:

ـ تعال اگعد هنا. يالله بالعجل

جذبته بسمة عينيها فسار اليها وجلس قربها على الجرپاية ذات الاعمدة الصفراء. كان راضياً عن اشياء لا يدري ما هي؛ لعلها نفسه ولعله نظام العالم الذي خيل اليه، دون اطمئنان، انه يسير سيرا طبيعيا لا يخالف العدالة. أمسك بيدها الحارة. كانت الغرفة ذات ضوء شاحب يملؤها بالاحلام، والسكون يلف الدنيا الصغيرة حولها. وكانت زوجته دافئة، تخفي في اعماقها ابنهما المشتاق الى الحياة والى البهجة والنور. ولم يكن يدري أكان سعيداً ام لا، وكان يحس انه لا يستطيع ان ينسى كل شيء.

(٣)

رأى الساعة في باب المعظم تشير الى الخامسة والربع قبل ان يهم بعبور الشارع. كانت السماء شفافة تلمع كالزجاج الازرق وبناية مديرية السجون تقف بجمود امامه. لم يسر طويلا هذا المساء، لكنه أحس بالاعياء والملل يتملكانه. كانت السيارات في صف لا نهاية له، تمنع عنه العبور الى الجهة الاخرى؛ وكان الجو مشبعاً بغبار يزيد في ظلمة الشارع. خف ألم معدته اثناء مرافقته لتلك العجوز اللعينة الى موقف سيارات بعقوبة. لكنه لما يزل يشعر بثقل مبهم في احشائه. لم تنقطع عن هذرها طوال سيرهما من البيت الى باب المعظم. كانت تحدثه عن أهله وعن بعقوبة وعن زوجته كأنه لا يعلم شيئاً عنهم. اي كابوس مريع كانت عليهما!

لقد أنشبت انيابها العتيقة فيهما خلال مدة بقائها ولبثت تفترسهما على مهل. ولكنهما تخلصا منها. ولكم شعر بارتياح عظيم يفعم قلبه وهو يودعها أحد الباصات الكبيرة ويدفع الاجرة عنها ويتركها وهي تتظاهر بالبكاء.

كان متعبا، ولقد أحس انه لا يستطيع ان يصل البيت سيرا على قدميه، فانحرف نحو موقف الباصات. من اين جاءه كل هذا التعب فجأة؟ لم يكن يرغب في اية خطوة يخطوها، وكان بحاجة الى نومة عميقة لا ينتظره بعدها احد. أهي المشاعر المرهقة التي سببت كل هذا؟؟

كان الباص الواقف خاليا فصعد اليه. خطر له بغتة وهو يرتقي الدرجات القليلة، انه ترك انساناً يموت وراء ظهره يوما ما. كان ذلك منذ شهر او أكثر؛ ولكن ما معنى مرور الزمن في شؤون كهذه؟ انه يندس متطفلا دون ان يسدل الستار على أتفه المآسي. واحتلت ذهنه صورة الشاب المحتضر. لم يتميز ملامحه، ولكنه عاش لحظة جو تلك التجربة المرة. لعله سيعيد عمله لو تكررت الأزمة، لأنه لا يزال يجهل معنى موقفه ذاك.

كان مستسلما لحركة الباص تسحب أفكاره وتسلسلها، ولم يعد يشعر بجسمه المتعب وهو على الكرسي المريح. ما معنى ان الوقت يمضي؟ ماذا حجز بين فراره من الشاب وبين مسائه الاسود هذا؟؟ أهي تلك الحوادث التي قاساها أقرب الناس اليه، ومرت دون حساب لشخصه؟ انه يتذكر، يستطيع ان يتذكر فقط. هذا هو ما اكتسبه. ولقد عمل ما بوسعه ليتدخل، لكنه وضع على الرف بشكل مهين؛ وشارك زوجته وابنه آلامهما ومصيرهما كما يمكن ان يفعل اي شخص حساس غريب عنهما. فهل أغنت هذه التجارب، اذا أمكن ان نسميها كذلك، أغنت نفسه فجعلته لسبب من الاسباب قادراً على الصمود امام استعطاف ذلك الشاب الحزين؟

الا انه ليس هناك من تلتجىء اليه، ولذلك لم يكن منطقياً ان يسأل عن السبب في كل هذه الآلام التي لاقتها زوجته.

اعتدل في جلسته قليلاً ووضع قدمه فوق حافة الباص البارزة. كانوا يسيرون ببطء شديد وسط الشارع المزدحم، واضواء النيون تنتشر في كل مكان. شعر، وسط هذا الازدحام، انه غير قادر على الثبات طويلاً. لم يجد من يلتجىء اليه، لم يكن هناك من يلتجىء اليه كي يمنح فشله معنى. كان يجب ان تنتهي «التجربة» في الوقت الذي يكتشف فيه وحدته. الا انها استمرت، وكاد هذا الامر يؤدي به الى الجنون. جنون صامت يدهم العقل فيسكته الى الابد. انه يتذكر، يستطيع ان يتذكر. كان الوقت فجراً والسماء رمادية بيضاء وبعض أضوية المستشفى الحمراء لا تزال مشعلة في الممرات والردهات. وكان مستلقياً على كرسي طويل في شرفة قريبة من غرفة العمليات. ادخلوا زوجته، منذ الصباح، تلك الغرفة الفظيعة ولم يسمحوا له بمشاهدتها.

شعر، خلال معاناتها آلام الوضع وسماعه صرخاتها الوحشية، برجليه تخذلانه. لم تكن تصرخ بيأس، بل كانت تستغيث مستنجدة. وكان في حركة مستمرة رغم الضعف المتزايد في أطرافه. إن هذه الآلام بدون مبرّر، ولا يمكن لأي إنسان ان يقبلها. ولكن، ماذا يعني رفضنا لها؟ انه لا يعني شيئاً. وهو يبقينا، كما نحن دائماً، بعيدين عن الألم، عن المتألم. ثم سكنت فجأة قبيل مغرب الشمس، ولم يخبروه بوضوح ما حدث، وكانت الممرضة تخرج مسرعة ثم تعود ماضية بالقرب منه، مكتفية بالاجابة على اسئلته بهزة رأس خفيفة «زينة. زينة» ولم يسمحوا له بالدخول عليها، وطلبوا منه ان

يرتاح. كان الصمت عميقاً في غرفة العمليات، في عالم زوجته؛ وحين خرج الطبيب، بعيد مغيب الشمس، لم يتضح لمحمد جعفر من معالم وجهه المتعبة ماذا ترك خلفه في تلك الغرفة. لقد بقيت بمفردها. وتركوها هكذا بعد ان اخرجوا الوليد الميت. لم يسلموه له وارادوا ان يمضوا به، لكنه لحق بهم. كان ضعيفاً شاعراً بعجزه أمام قوة مجهولة.

أرته الممرضة، وهي تنظر بأسف اليه، قطعة اللحم الحمراء الساكنة. كانت هناك جروح في رأس الوليد ووجهه. لم يقل لهم شيئاً. كان هذا اذن هو رمز حياتها وغاية آلامها المبهمة، وأي رمز بائس! لم يخطر له ان يأخذه منهم، لم يفهم فائدة هذا العمل، وعاد الى مكانه قرب الغرفة الصامتة بعد ان أعلمته الممرضة بأن زوجته لا تزال نائمة تحت تأثير المخدر. كان متعباً منهوكاً، وكان يحس انه بعيد عنها، وانها لا تمت له بصلة. ان مقاساتها وآلامها لا معنى لها البتة. لم يعد لها معنى منذ ان انطفأت في جوفها تلك الشرارة. ولكنها تتألم مع ذلك، ورفضنا لهذا الألم لا معنى له مطلقاً. ان جوهر الألم هو امتلاكه، هو ان تعيشه بلحمك الطري. وكان امام باب عالمها المغلق، يحس بها بعيدة عنه.

انها تتألم بمفردها. واخذته قبيل منتصف الليل غفوة وهو في جلسته في الشرفة. لا يزال يذكر الكوابيس المريعة التي احتشدت عليه في تلك الغفوة، كوابيس لا يعلم مم تكونت ولم ادخلت الرعب الى قلبه. رأى نفسه محاطاً بجدران عالية جداً من الصلب اللامع وهي تضغط على جسمه من كافة

الاطراف حتى تكاد توقف انفاسه. وكان يفكر، في محنته تلك، بطريقة للخروج ويتساءل ـ كيف يمكنه ذلك؟ وكانوا يجيبونه بقسوة متكبرة ان يدفع الجدار الأيمن ويخرج للفضاء. وكان متألماً غاية الألم لهذه اللهجة المهينة التي يكلمونه بها، ولهذا الغباء الذي يسيطر عليه ولا يدع لـه مجالاً لمعـرفة الجدار الأيمن وكان يريد ان يتوسل ويطلب الرحمة. ولكنه يعـود فيقول لنفسـه «انهم يعاملونني كـأني شخص محترم مدرك، فيجب ان اتظاهر باني كذلك» وكان متألماً تخنقه عبرة تقف في حنجرته.

واستيقظ مفزوعاً على الصرخة الحيوانية التي شقت نومه وشقت صمت غرفة العمليات. لم يع، في اللحظات الاولى، سبب هـذه الصرخـات المتصلة، وكانت اطـرافه ترتجف والعرق يبلل جسمه كله. قفز من مكانه وامسك بمسند الكرسي متسمعـاً الى الصراخ المؤلم. كـان الضوء ساطعاً في الغرفة حيث ترقد زوجته، وكانت اعصابه متوترة الى الدرجة القصوى.ماذا يعني كل هذا؟ أهي تتألم الى هذا الحد؟ ولم لا يسعى احد الى نجدتها؟ لماذا لا يشاركها انسان ما على هذه الارض، آلامها؟ وسمع نفسه يطلق صيحات وأصـواتاً عالية لا معنى لها، ثم ركض نحو الغرفة. لم تكن المسافة الفاصلة بينهما غير امتار قليلة، فاجتازها لذلك خلال بضع ثوان لم يمر عليه مثلها طوال حياته. لا يزال يرى تفاصيلها كأنها حدثت له منذ قليل. كانت كل ثانية عبئاً بالغ الثقل على عقله، وخيل اليه بعد ذلك ان زيادة ثانية

واحدة كانت ستودي بهذا العقل. لم يكن انساناً عادياً انذاك يخضع لقوانين المنطق، وكانت حركاته تصدر عن قوة هائلة أطلقت صدفة من عقالها. تركزت مشاعره وادراكاته بصورة جنونية في هدف بدا له قريب المنال. كان مؤمناً بقدرته على أن يعمل ما يشاء؛ ولم يندفع الى غرفة العمليات الا لتيقنه يقينا لا انسانياً بأنه سيرفع عن زوجته آلامها وسيضعها على نفسه هو. لم تكن لقوانين الطبيعة وجود تجاهه. سينفذ الى جسدها المحموم ليعيش أزمتها المضنية، ولم يداخله الشك مطلقاً. رأى عتبة الباب والكاشية الحمراء المكسورة، فانحفرت هذه الصورة في مخيلته قبل ان تفاجئه اللطمة القوية. لا يزال يجهل سببها، فلعلها الممرضة التى خرجت مسرعة آنذاك، ولعله الباب الذي كان يفتح بعكس الجهة التي أراد به فتحه، ولعلها آخر الأمر صاعقة من السماء. وقع في الحال على الارض فاقد الوعي. كان أمراً مخجلاً من بعض النواحي، الا انه أبعد الخجل عنه بعد ان تأمل فيه بعد ذلك. لم تفقده الضربة رشده، بل ان حواسه صدمت داخلياً فتوقفت عن العمل. وخيل اليه، في ايام تلت، ان عقله ذاته قد انقذ في اللحظة الاخيرة. لم يدر ماذا كان يمكن ان يحدث لو دخل الغرفة؛ الا انه بشكل من الاشكال، كان سيفقد عقله الى الأبد.

وقف الباص وقفة مباغتة دفعت به الى الامام. كان الازدحام شديداً قرب الشورجة، وخط السيارات الطويل يمتد الى نقطة لا ترى. ازعجته نوبة الذهول هذه التي رمته

بعيداً عن محل نزوله المعتاد. قام ثم انسل من مقعده خلال اجساد الواقفين وانتظر قرب الباب المغلق. رأى امامه وراء زجاج الحاجز وجهاً جميلاً لفتاة في العشرين اربكتها نظرته المفاجئة فرمشت جفونها وادارت رأسها نحو الشارع. كانت عيناها فاقعتي الصفرة وحمرة شفتيها خفيفة. لذه التملي من رؤية ملامحها الأنثوية الدقيقة ومن الاحمرار الذي كسا خديها. كان شعرها أشقر قصيراً لا يمس رداءها الأسود، وكان بلوزها الاخضر مندفعاً عند صدرها اندفاعين كبيرين. انها بذرة امرأة، وهي لا تزال رائعة الغنى بقابليات الحياة. هل يمكنه ان يحتضنها ويقبلها ثم يرافقها الى غرفة شاحبة الضوء ليحاول معها تجربة الخلود؟؟ هكذا بكل بساطة، لأن كل شيء يفسد حين تلابسه ظروف اخرى لا وجود لها الآن.

تحرك الباص فأحس بعظام صدره تضغط على عامود الحديد. نزل في موقف سينما الحمراء واتجه متدافعاً مع المنتظرين نحو الحيدرخانة. كل شيء يفسد حين يتحقق. أليس في هذا مأساتنا المفزعة؟ كانت رغبته الجنسية تضغط على اعصابه المتعبة فتزيد في ازهاقها. لقد نسي تلك اللحظات الفذة التي تسمى نشوة. زالت من نفسه كأنه لم يعشها قط. وهذه الرغبة الكامنة الصامتة التي تهب احياناً بوحشية فتشقيه ساعات، لم تستطع بعد ان تفقده احترامه لنفسه وتبيح له عودة بائسة الى عادته السرية.

كان الهواء ناعماً بارداً، وضوء النيون الكئيب يملأ

ساحة الشورجة. لم تزل في السماء بقية نور باهت تطفو على ظلام الليل. هذه الليلة، انها تحمل اليه وعوداً لم تحملها الليالي منذ ايام طويلة. وعود غامضة مثل مولد الفجر. وكان يحس بخوف مستقر في اعماق نفسه، خوف لا يستطيع ان يؤكد وجوده، لكنه يسيطر عليه كما يسيطر على الاطفال حين يفكرون بآمالهم. وهو مثل ذلك الشعور الذي احتواه ليلة جاء زوجته المخاض. كانا قد ناما بعد ان داعبها وقبلها طويلاً في ظلام الغرفة الدافئة. لم تخبره بشيء، وكانت صامتة تحتضنه وتبعده برفق عن بطنها حين يستند عليها. ولكن صمتها كشف له عن حبها لرجولته وللحياة التي يريد بقوة ان ينقلها اليها. الا ان شعوراً مضنياً أمسك بقلبه لحظة، شعوراً أسود بكآبة لا تطاق. أي مستقبل يؤدي اليه حاضرهما؟ وفي ذلك الظلام العطوف وهو يحس بحرارة زوجته وبخفقان قلبها، استطاع ان يتناسى كل خوف. وهمس في اذنيها حديثاً متقطعاً عن شوقه اليها والى امتلاكها؛ وكانت راضية سعيدة لا تريد ان تفوتها كلماته المحمومة. لكنها طلبت منه ان يؤجل الأمر الى الغد، وكانت تحس توعكاً، ولم يأت الغد، غدهما، وسمعها في منتصف الليل توقظه مستنجدة متألمة وتتشبث بذراعه تشبث الغريق. وهكذا مضى الشوق مع العاصفة التي لا ترحم، وبدأت معاناته لتجربة فشل اخرى.

كان خط السيارات الطويل لا يزال ممتداً دون حراك، والضوء قد تلاشى من السماء. خيل اليه ان كل هذا حدث

منذ زمن بعيد؛ وشعر بنفسه يرتاح لهذه الفكرة التي لم يستطع الايمان بها بسهولة. لم يكن الازدحام شديداً قرب الجسر، وكان يسير بخطوات بطيئة ثقيلة دون ان ينظر الى وجوه المارين رغم شعوره بوطء وجودهم. لا شيء يريح في هذه الوجوه. آمه، في المستشفى، ذلك الانطباع الذي كان يصدمه في وجوه معارفه وبعض موظفي المستشفى. انطباع يائس بانعزالهم عنه وعن محنته. كان يرى بفزع في عيونهم صمتاً موحشاً لنداءاته، وكان يشعر بفزع أشد حين يخطر له ان زوجته، في نوبات صحوتها، قد ترى مثل هذا الصمت في عينيه. هذه الـ «قد»، كم أرقته ليالي ولم تزل. انها الشكل المستديم في الا نكون بشراً. ومن يدري، فقد لا نستطيع، كلنا، ان نثبت حقيقة اخرى تنقض هذا الشك. انه الوجه الآخر، الهارب منا على الدوام.

لحظ مقهى حسن عجمي يمر به فتوقف أمامه. نوبة سهوم اخرى. خطر له ان يشرب شاياً قبل ايابه الى البيت فدخل. كانت قنفات المقهى محجوزة جميعها فهم بالخروج حين رأى اسماعيل يشير الى كرسي فارغ في زاوية منعزلة. لم يرتح لجلوسه قرب جماعة من الشيوخ الثرثارين، لكن مجيء اسماعيل أكد بقاءه. كان يرتدي دشداشته الزرقاء ويبدو عليه كأنه صاحب الدار. صاح:

ـ مساك الله بالخير ابو جاسم. شلونك؟

ولم تكن الضوضاء تبرر صياحه. أجابه محمد جعفر:

ـ الله بالخير. قد چاي ابو حقي

- ممنون

ثم توقف امامه. كان قصيراً نحيلاً ولحيته بيضاء في صفرة قاتمة. لمح في عينيه الصغيرتين القذرتين بصيص عطف واشفاق. مال نحوه وهمس قرب وجهه

- ما أدري شلونها ام.. ام، شلونهم الاهل؟ ماكو چاره لعيونها؟ يعني راح تبقى بصيره؟

كانت رائحة التبغ كريهة فيه وانفاسه مشبعة بحموضة معدته. قال محمد جعفر بسرعة:

- زينة. الله كريم. فد چاي بالله بالعجل

فتراجع اسماعيل وجمد هنيهة قبل ان يتحرك:

- ها؟؟ بيها الخير انشالله. بيها الخير

ثم مضى. كانت عظام ظهره بارزة من وراء الثوب، وطرف يشماغه يتهدل فوق رقبته. لمس لأول مرة مبلغ البؤس المتمثل في هذه العظام؛ وأدرك ما معنى ان يكون الانسان صانع مقهى في اواخر حياته. كان يعطف على اسماعيل عطفاً مزيفاً، كالصدقة التي ترمى الى فقير دون معرفة لمقدار عوزه. ولقد كشفت زيف عطفه، نظرة من تلك العينين الخامدتين القادرتين على الاشفاق المخلص.

كانت الساعة تقارب السابعة، رآها من زاويته الباردة؛ وكان بعض الاشخاص قربه يثرثرون دون انقطاع. جاءه اسماعيل بالشاي ووضعه جنبه على طاولة صغيرة ثم انصرف دون كلام. كان جو المقهى مضبباً وقسم من

الأباريق النحاسية المصفوفة تلمع تحت اضواء النيون. لم يشعر برغبة في العودة الى البيت. لا يزال يملك وقتاً يحاول خلاله فهم نفسه وفهم مخاوفه الغامضة. لم تطلب منه، لم تستطع ان تطلب منه العودة سريعاً، ولكنه يعلم انها تنتظره الآن.

كانت في شغل بالتغلب على اعصابها وعلى الاثر المروع الذي كان يسببه بكاء تلك العجوز اللعينة قبل سفرها. لقد أكلت طعامهما طوال اسبوعين وحاولت ببكائها الموحش وكلامها المستمر ان تجعل من فقدان زوجته بصرها حكماً بالموت عليهما. كانت رسولة اهلهما، وكانت ترى من واجبها الا تدعهما ينسيان محنتهما. توسلت به زوجته قبل يومين ليعيدها الى بعقوبة. بكت بحرقة على كتفه واخبرته انها ستجن لو بقيت عمة جبار يوماً آخر، ساعة اخرى.

وأحس آنذاك ما هو من زوجته، وكان توسلها اول بوادر الحياة فيها، فتمسك به واعاد عمة جبار الى بلدتها. وبقيت زوجته بمفردها. لا تزال بمفردها تنتظره الآن في ظلمة غرفتهما، في ظلمة عالمها.

خيل اليه ان الضوء في المقهى شديد السطوع. لكأن صاحبها خشي ان يتسرب الظلام الى مكانه. ما أسخف هذا!

لقد اراد، ايضاً، ان يمنح النور لمخلوق آخر، ابنه، فهل كان ذلك سخفاً منه؟ وهل كان سخفاً من زوجته ان

تتجرع كل تلك الآلام لينتهي الامر بموت وليدها وفقدانها نظرها؟ وشعر ان الشيء السخيف بصورة مؤلمة هو ان يفتش عن العدالة في هذه الشؤون.

لم يعلموه الا أخيراً ماذا تعني اصابة زوجته بالحمى الدماغية اثر ولادة صناعية؛ وكان ينظر الى وجهها الممتلىء المحتقن دون ان يتقبل ان هذا الوجه البريء سيفقد لغير سبب ضوء عالمه. لم يفهم هذا الحكم الذي نطق به عليها من قبل قوة وحشية عمياء. أُصابته دهشة مستمرة، وكان ألمه يتضاءل امام بهته. بقي مبهوتاً خلال أيام أصابتها بالحمى، وظل كذلك بعد شفائها واخراجها من المستشفى وعودتها الى البيت.. الى غرفتها والى عزلتها. لم يكن يدرك بوضوح ما يصيبه حين يواجه عينيها الواسعتين السوداوين. كان هناك تناقض مرير يفطر القلب بين رؤيتها بكل حياتها.. ماضيها وأنوثتها.. وبين تلك الحقيقة الغريبة في ذهنه.التي تكرر وتكرر دون ملل: إنها لا ترى شيئاً، إنها لا ترى شيئاً.

ولم يجد حلاً، ولم يعلم هل يمكن ان يوجد هذا الحل. وكانت وحشته لا حد لها في غرفتها. اعتادت الجلوس على الفراش دون حراك. كانت تخشى الحركة بدرجة مؤلمة، ولم تألف معرفة الأشخاص من أصواتهم، وكانت تبكي أغلب ساعات الليل والنهار؛ وكانت وحشته لا حد لها. ولعلها تبكي الآن ايضاً، فوق سريرهما الخالي. أحس بقلق لهذه الفكرة التي انتهى اليها. كانت تتجنب

البكاء حين تعلم انه في الغرفة. وكانت تجهل كيف يمكنها ان تتصرف لترضيه. اخذت تشـك في قيمة وجـودها في حياته، وما هي منه. ولم يغب عن ذهنه ذلك، واستطاع ان يحدس المعنى الذي قصدت اليه حين أصرت صباح اليوم على النزول الى الأسفل لتغتسل في الحمام الحار الذي هيء لها.

ساعدها جميع أهل الدار على اتمام مشروعها بنجاح. ولم يتحمـل مشاهـدة تهجسها وعـدم ثقتها بنفسهـا حين خرجت من الغرفة. ولكنها عادت قبيل الظهر نظيفة محمرة الخدين وجلست بسكون تمشط شعرها. بقي يتأملها اثناء ما كانت عمة جبار تحزم حوائجها، ولم يفتقد شيئاً فيها. لا زالت بشرة رقبتها وذراعيها بضة ناعمة لا تشوبها الغضون، وشفتاها ممتلئتين رطبتين؛ وعيناها، رغم الغيمة المبهمة التي تظللهما، صافيتين طويلتين. وكان نداء جسدها الفتي يبعث فيه نشوة غامضة. كان يعلم انها بحاجة ملحة لعمل ما يعيد اليها شعور الطمأنينة، شعور الثقة، الذي يبدو انها أضاعته. وكان يريد هو ايضاً ان يتم معها هـذاالعمل. ولكن اعماقه المجهولة كانت تعكس على نفسه قلقاً لم يجد له اساساً حتى هذه اللحظة. هل يخشى ان يزيل هذا التوتر الجنسي الذي لازمه منذ اكثر من شهرين؟ أم انه يتهجس فشلاً مؤلماً لا يتحملانه؟ أم انه يشك في تفسير قصدها؟ لم اذن كل ذلك الاستحمام وكل تلك الخطط لطرد عمة جبار؟ كلا، ان احساسه لا يخونه في هذه الناحية، ولن يلبث بعد حين

ان يتأكد من ذلك.

كان الاستكان فارغاً على الطاولة الصغيرة بجانبه. ان منظره غالباً ما يلفت عينيه، فهو يبدو له كمخلوق ضئيل ذي مشاعر، ينتظر مصيره المفجع ببلاهة مؤلمة. رأى يداً سمراء نحيلة تمسك بالاستكان وترفعه وسمع اسماعيل يقول له:

ـ چاي لاخ ابو جاسم؟ خدرنا جديد

كان وجهه صغيراً يطبعه الارهاق بقسوة، ولحيته قصيرة حائلة اللون. لاحظ الاقذار في طرفي عينيه الجامدتين. كان اسماعيل ينتظر ايضاً ببلاهة مؤلمة مصيراً مفجعاً. وخيل اليه انه لا يستطيع ان يؤكد انه هو نفسه لا ينتظر مثل هذا المصير. ولكن، أببلاهة ايضاً؟

هز رأسه نفياً ولم يجب، فمضى اسماعيل. قام بعده فترك المقهى بعد ان تطلع الى الساعة ورمي قطعة النقود على الصينية.

كان الهواء بارداً فأسرع في سيره. وصل محل كباب السليمانية فاشترى بعد انتظار مزعج عدداً من الاسياخ. كانت عمة جبار تطبخ لهما، وكان ذلك أحد مظاهر الترف التي رافقت وجودها الثقيل. لم تكن الطريق مضاءة، لكنه بقي محافظاً على سرعة سيره، ورائحة الكباب النفاذة تطرد عنه روائح الأزقة. رأى، قبيل دخوله البيت، شبحاً يقف في زاوية مظلمة قرب الباب. تمعّن فيه قليلاً فعرف

سليمة. نادى عليها مستغرباً:

ـ سليمة؟

فأجابته بصوت ليّن:

ـ اي

رأى شفتيها تلمعان في الظلام. تمهل في سيره:

ـ ليش واگفه بره ؟؟ تعاركت وياچ امچ مرة لخ؟؟

اجابته:

ـ لا ع

فألح عليها:

ـ صدكَ؟

كانت امها، هذه الأيام، تعتدي عليها دون ان يعلم احد بالضبط سبباً لذلك. لم تقل شيئاً، فعاد يكلمها ـ

ـ ليش لعد واگفه هنا؟ تعالي خشي جوه

كانت تبدي حياء حين يتحدث معها، وكان يشعر انها تكن عاطفة تقدير له. لعلها أحست ان لطفه الموجه اليها يحوي احتراماً من نوع الخاص.

لم تجبه، وخيل اليه انها تدير برأسها ناحية اخرى. حيرة تصرفها. اراد ان يمر ويتركها لشأنها لكنه أحس بغموض انها تتمنى لو ساعدها على أمر ما. قال وهو يقترب منها:

ـ ليش ما صعدت يم سعديه؟

كانت مطرقة الى الارض، وقد غطى شعرها قسماً من وجهها فلم يعد يتبين ملامحها:

ـ لا توگفين يم الحايط، اكو عگارب هوايه هالايام

فابتعدت ببطء عن الحائط الذي كانت متكئة عليه بظهرها. صارت قريبة منه. كانت بشرتها على ضوء الطريق، صفراء وفي عينيها الواسعتين بريق. تذكر انه لاحظ قبل ايام نمو ثدييها واندفاعهما القوي. ان هذه المخلوقة ينبوع رائع للحياة. لم تكن ملابسها آنذاك تخفي حنايا جسدها الفتي، ولقد بهره اكتشافه لها.

قالت فجأة بصوت صاف خافت:

ـ سيد هاشم عدنا بالگبه. تريدني اگعد وياه

انها الينبوع الخالد. لم يفهم قصدها اول الامر:

ـ شبيه سيد هاشم ؟

ـ ما أدري

لكنه علم ماذا كانت تعني. اراد الا يقطع سلسلة احساسه البديع بهذه الحياة الفوارة امامه. لماذا يلوم ذلك السيد العجوز لانه يحوم حول سليمة ويسعى لامتلاكها؟ انه كالفراشة الحمقاء تدور حول النار التي تحرقها. فراشة حقاً! ولكن لومه لا يفيد والصفقة قد تتم بين يوم وآخر. قال بصوت أجش:

ـ تعالي ويايه لعد، تعالي. راح نتعشى، انت هم اتعشى ويانا. أتعشيت؟

ثم سار داخلا فسمع وقع اقدامها الخافت يتبعه. كان الحوش مظلماً لولا مستطيل الضوء الاحمر المرتمي من نافذة ام سليم. تلمس طريقه ببطء وحذر نحو السلم.

همست سليمه وهي تصعد الدرج خلفه:

ـ بعده گاعد عدنا

فتملكته رغبة في الضحك ولم يجبها.

تعشوا سوياً تحت ضوء اللمبة الاحمر، هو وزوجته وسليمة. وكان يحس بخفة في قلبه وهو يداعب سليمة بكلامه واسئلته. لم تخف عنهما كرهها للسيد وفزعها مما تدبره امها؛ وكانت تشتمه وتتمنى موته بصورة مستمرة اضحكت زوجته. اخبرتهما كيف تجبرها امها على الجلوس معه في غرفتهم، وكيف تكلمه عنها وعن شبابها وصغر سنها؛ وكانت منطلقة بشكل لم يعهده فيها. الا انهم توقفوا عن حديثهم الصاخب وانصتوا بهدوء ساخر حين سمعوا ضربات العصا على حجر الطارمة. رأى عيني سليمة تلمعان ببهجة وهي تنظر اليه؛ ولم يلمح فيهما اية قابلية للحقد. مر السيد قريباً من نافذة الغرفة وهو يهمهم مع نفسه «الله اكبر. ايه.. الله اكبر. الحمدلله» ثم سمعوا ضجة دخوله الى غرفته وصفقه لبابها بعنف وراءه.

لم تبق سليمة غير دقائق قصيرة بعد مجيء السيد، واسرعت بالنزول الى الاسفل.

سكنت الغرفة بعد ذهابها. كان جالسا على كرسي

امام زوجته التي اضطجعت على الفراش وسحبت اللحاف الى صدرها. لم يشعر بقلق وخطر له عدة مرات انه سيتصل بها بعد قليل. قام ينزع ملابسه فسمع زوجته تسأله:

- وين رايح محمد؟

فأجابها وهو يخلع سترته:

- دا أنزع

فأردفت برقة:

- آني هم اريد انزع هدومي. اريدك تعاوني

فاسرع بخلع ملابسه وارتداء دشداشته ثم اتجه نحوها. قالت حين سمعت خطواته القريبة:

- اكو نفنوف نوم اخضر بالقنطور، اول طبگة. جيبه وياك عيني محمد

احضر الثوب معه، وكان رقيقا مشبعا برائحة عتيقة تذكر انه اشتراها لها اول زواجهما. وقف قريباً منها. كان ضوء اللمبة شاحباً يرتمى على وجهها بانحراف، وكان خدها الايسر مدورا ذا حمرة خفيفة وشعيرات الجفن ترسم ظلالا طويلة على صفحة انفها. وكانت فتحة الصدر ضيقة وخصلات شعرها الاسود تخفي رقبتها واذنيها. أحس بسكونها الذى لم يألفه من قبل فيها، سكون غامض لا يريح. وضع يده برفق على كتفها، محيطا رقبتها وشعرها بذراعه. شعر بها تميل عليه وتضغط براسها على ذراعه. ثم

همست:

ـ شگد باردة أيدك

لم يجبها وانحنى قرب وجهها. رأى شفتيها منفرجتين قليلاً يزيد الضوء في امتلائهما، فوضع فمه عليهما. كانتا ناعمتين، واحس برجفة ضئيلة فيهما. لم تتحرك، وابقت ذراعيها تحت اللحاف. شم رائحة الصابون المعطر في وجهها ثم تملكته موجة دوار طفيفة. ضغط بفمه على فمها واحتواها بين ذراعيه ببعض العنف. كانت زوجته هي التي يقبلها ويعصر كتفيها ويشم رائحتها، وكانت رغبته فيها قوية عارمة. لم يعد الماضي موجوداً معهما الآن. اخرجت ذراعيها واحتضنته بشدة دون كلام. قبّل رقبتها الحارة وخديها وشعرها، وضمها بتشنج الى صدره. كان سعيداً، لأن عالما واحدا يضمه ويضمها، ولانه لم يعد يشعر ماذا يعني ان مستقبلاً ما ينتظرهما.

نزع عنها جاكته الصوف السوداء بيدين مرتجفتين، ثم ساعدها على خلع ثوبها. همست وهي ترفع ذراعيها:

ـ دير بالك عيني على شعري

كانت امرأة تحب له ان يجد شعرها مرتباً قبل ان ينام معها. كانت امرأته، ولم تخطر له بقية حقائق الحياة.

صرت الجرباية حين صعد عليها ليرتمي قرب سعدية. شعر بجسمها العاري ناعماً دافئاً؛ وكانت ساكنة تشد

ذراعيها حوله. لم ير وجهها المدفون في رقبته، وأحس بانفاسها الحارة وبلمس شفتيها على كتفه.

كان الضوء شاحباً أحمر تغلبه الظلمة، وكانت الظلال تشترك معهما في عملهما الفذ الفريد.

مرت عليه ساعة او بعض ساعة وهو لا يزال راقداً على ظهره متمتعاً بالدفء وبالسكون المطبق. كانت انفاس زوجته رتيبة لا تكاد تسمع؛ والظلام في الغرفة شفافاً يضفي على اثاثهم المتواضع ستاراً من الابهام. ألفت عيناه الظلمة بعد ان اغتسل واطفأ اللمبة، وكان يتوقع نوماً عميقاً هرب منه، فبقي متمدداً في مكانه ونظره الى السقف.

لم تكلمه سعدية ولم تقم من محلها واكتفت بارتداء ثيابها ثم اضطجعت وانتظمت انفاسها بعد دقائق. لم تغتسل، وقد هم ان يذكرها بذلك وان يلح عليها كما اعتاد ان يفعل، لكنه لم يقل شيئاً. وها هو، ولم تمض عليه غير ساعة، يدرك انه ما سكت الا لاحساسه بتغير جوهري طرأ على علاقتهما. لقد دخل عالمها فترة ما ثم خرج منه؛ فهل سيستطيع ان يدل على موضع العطب؟؟

كان الفراش دافئاً مريحاً وسكون الغرفة والعالم يبعث فيه طمأنينة من نوع خاص. لقد خرج اليها وعاد الى نفسه. كان اتصالهما مغامرة مجهولة النتيجة، مثل اي اتصال بين امرأة ورجل، يسوده الشك كل لحظة في ان ينهار فجأة. وماذا يبقى لهما من بعد ذلك؟

مثلما هو الآن؛ راقد في فراشه الدافىء دون امل، دون مشروع جديد. حتى الاتصال بها ثانية لا يريده الآن. لقد أخبروه ألا يرتجي مقدم طفل آخر منها. طفل آخر! ألم يكفه ما وضعه ذلك الطفل على كتفه من عبء مادي باهظ؟

لقد طارت دنانير سيد هاشم قبل ان يحس بملمسها؛ ولا تزال بعض الأشياء التي اشترتها زوجته لم تحل ربطتها ولم تخرج من قعر الصندوق. طفلهما! طفلهما! ماذا كانا سيعملان به؟ كيف يصوغان من قطعة الحم تلك، انساناً ذا حياة خصبة وشعور مرهف؟؟

انها لم تسل عنه، عن وليدها. لم ترد أن تعرف على اية هيئة كان وكيف اختنق واين دفنوه. كان عندها القمة التي وصلت اليها اوجاعها، وكانت نهايته قد اظهرت عبث تلك الاوجاع بصورة لا تحتمل. ولكنه لا يتألم مثلها. انه يقضي وقته في التفكير بالالم دون ان يعيشه. الا يبدو هذا من حسن الحظ؟

إلا أنه يعلم جيداً مع ذلك ان وجوده في هذا العالم بالذات يضع في أعماقه بذرة شقاء لا تموت. انقلبت زوجته على جنبها ثم تنهدت تنهدة طويلة وسكنت. انها تنام نوماً هادئاً. أليس عجيباً ان تبقى على قيد الحياة؟ وتذكر صراخها في تلك الليلة المريرة حين ذهب عنها تأثير المخدر. كان صوتها حاداً تشوبه بحّة طعنت قلبه بصورة مفاجئة؛ وأدرك انه يشرف على الجنون لأسباب يجهلها. واصطدم رأسه

بالباب، فأنهى ذلك كل شيء. ولكن، ماذا كان يمكن ان يقع؟؟ هل في حواسه، أذنه وقلبه، طاقة تحطيم عقله؟

رأى صفحة السماء من فرجة صغيرة في أعلى الستارة، كانت سوداء اللون سواداً براقاً. لو جنّ تلك الليلة لكانت نتيجة باهرة لحياته. الا انه لا يسأل نفسه، لِمَ بعد كل شيء هذه الازمات وهذا العذاب المعقد؟ هل يحب زوجته درجة الا يجد شيئاً آخر مهماً من بعدها؟

كان ساكناً يتأمل نور النجمة الصغيرة التي جذبت عينيه خلال الفرجة. كانت تتألق وتخفق كالطفل في مكانها البعيد. تمنى لو كان بمقدوره ان يضيع بنظره في السماء كلها. ولكنه لو قام لاستيقظت زوجته ولذهبت هذه اللحظات التي لا وصف لها. لحظات نفسه ولحظات السماء. انها واسعة هذه السماء، واسعة. هي تتسع ولا تتناهى؛ لاجل ان نضيع فيها، لاجل ان تغمرنا براحة الموت. لا أمل اذن منها؛ كما كان يرجو دائماً. لكنه لا يفكر جدياً بهذه القضايا؛ لقد شعر بذاته وهو مجرد من الإيمان، ولا يزال يستخف بكل إيمان بأشياء لا تحل أية مشكلة انسانية. لقد كان باستطاعة ذوي الايمان جميعاً ان يعيشوا ويموتوا دون ايمانهم. ألم يكن باستطاعتهم ذلك؟ وكانت النجمة الصغيرة، نابضة النور في سمائها العالية. شعر انه يفكر دون أساس ثابت يبدأ منه. فقد لا يستطيع ألم الانسان وشقاؤه وقبح عالمه ان ينفي، في النهاية، أتفه فكرة دينية. ولم ذلك ؟ الا يتألم البشر بدرجة كافية؟ وهل يشقون

ويموتون لاجل غاية ما؟ هذا السؤال الخالد الذي لم يعد يحمل معنى.

أحس بالملل يساوره فحوّل نظره عن فسحة السماء البراقة. انه لا يستطيع التفكير بعمق في مثل هذا النوع من المشاكل؛ فلا يكاد يبدأ حتى تلتوي الأُمور وتتعقد الطريق ولا يبقى امامه سوى النكوص. انقلب على جنبه الأيمن فاقترب وجهه من وجه زوجته. لا تزال نائمة بهدوء. كانت أنفاسها متّصلة حارّة ذات رائحة لم يستسغها. انقلب مرة اخرى مديراً ظهره اليها. ان هناك امرا واحدا يستحق ان يفكر فيه. كيف نعيش في هذا العالم الـذي ليس لنا، الذي لم نملكه يوما، لم نملكه لحظة؟؟ كيف نعيش لنموت آخر الامر؟؟ وهل هناك، امام الموت، حياة أفضل من الأخرى؟؟

نعم. ان تملك كل شيء. ان تعيش في قصر باذخ برفقة نساء جميلات وان يمكنك.. هل هذا ضروري؟ ان تكون انسانا شريفا. وما معنى ذلك؟ أن الشرف لا يوقف آلام البشر، ولا حتى آلام فرد مفرد. ولكنك تستطيع ان ترفض هذا الالم بضمير مطمئن وانت في فراش وثير دافىء وبين أحضانك امرأة ناضرة. ستكون آنذاك، رغم أنف الاخلاقيين، انسانا شريفا! يا للسخف!

ما هو الشرف عنده إذن، هو الذي عليه ان يعايش امرأة عمياء؟ هل يبقى، ليل نهار، يهتف بها انه يرفض ألمها

وعماها؟ ولكنه في نفس الوقت، يرفض تقديم الطعام لها او مساعدتها على تنظيف جسمها! لعل هناك من يعمل هذا الشيء، او يعمل أشياء اخرى من نوعه. وهم البشر المزيفون، لان هذا هو التزييف الجوهري الوحيد في حياتنا. أن تزيّف ردّ فعلك امام ألم الآخرين.

وهو لا يقدر على الإتيان بعمل كهذا. لا يمكن أن يجد راحة حقيقية في عمل من هذا النوع. هل يجب إذن أن يتناسى فكرة الشرف؟ ولكنها هي نفسها فكرة الإخلاص، فكرة الانسجام. انسجامه الذاتي. وكل هذا يعني موقفاً معيناً من أزمة زوجته؛ من محنتها، من ألمها. وما هو ألمها؟ إنه عماها، وهو الذي يجب أن يشارك فيه. ولا فائدة من النظر الى الأمور بغير هذه النظرة. إن المعيشة معها لا تعني شيئاً، لأن عليه ان يعيشها هي نفسها، ألمها.

انتبه على قلبه يدقّ بسرعة ولم يكن مرتاحاً في رقدته فانقلب على ظهره. تنفس ملء رئتيه مرتين او ثلاثاً، ثم نظر نحو الستارة الباهتة اللون. تمنّى أن يكون واقفاً بمفرده تحت السماء العريضة. إن أفكاره تتسع وتعمق كلما فكر وهو يتملى من السماء. ولكن زوجته قد تستيقظ قبل أن يصل النافذة. إن فكرته عنها لم تخطر له من قبل بهذا الوضوح. أن يعيش ألمها، وماذا في الإنسان غير ألمه؟ وسيعمى معها لأجل أن ترى بنوره. إن هذه الفكرة قد تنقذه لو أمكنه.. لو أمكنه أن يعيشها.

أغمض عينيه فترة، وعجب كيف لا يواتيه النوم رغم المجهود الذي بذله. ولكن، هل سيستطيع الصمود؟ وما هي النتائج؟ لم يدر بماذا يجيب نفسه، وهل يجب أن يجد جواباً، وانقلب على جنبه مديراً ظهره الى زوجته. لم يكن متحمساً ولا هادئاً، وأحس بقلق بسيط يساوره حين تذكر ما يملك من نقود. . . ثم أخذه النوم.

(٤)

شعر بسرور حين رأى وجه عبيد يشع بفرح بليد وهو يغلق خلفه باب المحاسب. كانت الابتسامة تجر طرفي فمه وعيناه غارقتين في اللحم المحروق. سأله:

ـ ها، عبيد؟ قبضت؟

فضحك عبيد وهو يتحسس جيوبه بحركات لا معنى لها:

ـ أي والله يا عمي يا بو جاسم

ثم سكن فجأة وغابت الفرحة عن ملامحه واردف،

ـ ما منهن خير. كل قران، على گولتهم، اله مچان

فتركه داخلاً غرفة المحاسب. سيقوم بنفس العملية التي تتكرر كل شهر. يوقع ثم يحصي الدنانير الموضوعة بعناية في كيس ورقي كتب عليه اسمه «محمد جعفر ـ الاوراق» ثم يمضي مثل البقية. ولم يكن يعلم أتراود نفوس الموظفين مثل تلك الدقائق من الغبطة قبل ان يقبضوا رواتبهم، أم لا؟ ولكنه كان يحس بمقدار ضعفه وهو يهدهد هذه الغبطة التي لن تدوم طويلاً.

أغلق باب المحاسب خلفه هو ايضاً وسار الى غرفتهم. كان الدهليز مظلماً في هذا اليوم الغائم، لا تضيئه

غير ارتماءات النور من الشبابيك الصغيرة العالية؛ وكانت المصابيح الكهربائية في غرفتهم تبدو أشد حمرة من أي وقت مضى. لم يجد ابا خليل في مكانه، فدق الجرس وطلب شاياً.

لم تنقص من غبطته الغامضة التي فارت من اعماقه هذا الصباح، رؤيته للاوراق والاضابير متكومة باهمال على مكتبه. بقي يتأملها منساقاً مع لذة سرية لا سبب لها. كان الضوء المنصب من الكوة حليبياً داكناً يشبه لون الغيوم؛ ولم يكن يصل صفحة منضدته بل سرعان ما يذوب في حمرة المصابيح البلهاء. ولم يكن باستطاعته ان يرى الغيوم خلال الكوة الزجاجية المغلقة من اعلى؛ ولكم سره منظرها في الصباح وهي تسرع على صفحة السماء. لم يجد في نفسه، وهو يغرق في الفضاء الضيق امامه، دافعا لتنظيم راتبه واحصاء الديون على الورق. ماذا يعني، امام الصباح المشرق والغيوم، ان يعلم انه لا يملك فلساً واحداً من راتبه؟

فتح الباب بعنف ودخل ابو خليل والسجارة في فمه، فسار مسرعا وجلس الى مكتبه. كانت لحيته طويلة بعض الشيء تزيد في تعميق تجاعيد وجهه السمراء. بدأ بتقليب إضبارة امامه دون ان يكلم محمد جعفر، ثم أخرج منديله المكور ومسح انفه وهو لا يزال يتظاهر بانكفائه على الاوراق.

لبث يتطلع اليه. لقد قضى ايامه هكذا. اذا جاءته متعة تلقّفها وان لم تأته كان ذلك لنقص فيها. ويبدو انه لا يشعر ان عليه آخر الامر ان يوجه حياته. ليس في أيامه التي لالون لها ما يجعله مضطرا للتصميم على أمر عظيم يفعله.

إنه إنسان يعيش، ويظهر أن في طبيعة مشاكله أن تحل دون تدخل منه. ولكن، أمن الممكن هذا؟ هل بمقدور الإنسان ان يضع نفسه على الرف أمام العالم وأمام الاخرين؟

رآه يرفع رأسه ويوجه الحديث اليه:

ـ صافن ابو جاسم. خير انشالله. يبين اكو كمبيالات هالشهر عليك؟

ازعجه انقطاع حالته النفسية. لم يجب ابا خليل اول الامر وتنحنح قبل ان يتكلم:

ـ اي والله ابو خليل. علي كمبيالتين مستحقة رأس الشهر

اخرج ابو خليل سيجارة اخرى:
ـ ألمن ؟ اخاف لهذا السيد الملعون الوالدين؟
ـ اي . أكو غيره؟
ـ الله يگصف عمره

شعر ان ابا خليل قال كلماته الاخيرة باخلاص. لعله يتمنى حقيقة ان يموت سيد هاشم لاجل ان ينزاح عن كاهله عو عبء دينه الثقيل. أثّره هذا العطف السلبي. قال:

ـ ما يگدر عليه

كان ابو خليل يقح ويبصق خلف المكتب:

ـ گل لي، هذا السيد متزوج مو؟ اخذ ابنية صغيرة؟

ـ اي. اسمها سليمة. تزوجها گبل شهرين. نطى امها اربعين دينار وأخذها.

فاخرج ابو خليل كفيته بانفعال وهتف:

ـ ملعون الوالدين. ما يندره عنده حيل لو واگع فد نوب. هيا كلب يا ابن الكلب.

ضحكا معاً. أردف هو بعد صمت قصير:

ـ احنا نعرف مرته قبل ما يتـزوجها. ذاك الشهـر اترجيناها گالت له يأجل فلوس الكمبيالة المستحقة، فهو أجلها حسب الاصول. لاكت هالشهر توالمت

فاستغرب ابو خليل:

ـ عجايب! بيها قوة لازم هالصغيرة. حلوة يمكن. جربوا وياها هالشهر والله كريم

ثم ضغط على زر الجرس قربه وعاد الى أوراقه.

لم يجبه. لماذا يتحدث هكذا عن سليمة وعن حياته هناك؟ لِمَ يقول نعرف سليمة ولا يقولها صراحة.. أعرفها؟ تلك المخلوقة الصغيرة الغامضة؟

رأى عبيد يدخل حاملاً قدح شاي وضعه امامه، ثم سمع ابا خليل يتحدث مع عبيد ولم يفهم كلامهما. تناول شايه واخذ يتأمل السائل الاحمر المضيء. تـزوجها ذلـك

السيد الاعمى ذو العظام، تزوجها بصورة واقعية ونقلها الى غرفته لتشاركه فراشه. تلك الفتاة الصغيرة ذات الأسرار، انه لا يعرف ما تكنّ له. فهي تطيل مكوثها معهما، معه ومع زوجته العمياء، دون ان تتحدث الا قليلاً. تبقى جالسة على الكرسي قرب المنقلة التي تجلبها معها من الأسفل، وهي تنظر اليه بعينين سوداوين تخفيان سراً مكتوماً. وكان يلاحظ التغيّر الذي تطبعه حياتها الزوجية على ملامح وجهها وعلى جسمها. هذا التفتّح الشاذّ للحياة المتبدّي في نظراتها العميقة وفي السمنة البسيطة في صدرها وردفيها، أليس عجيباً ان يكون نتيجة لفراش السيد النتن؟ وشفتاها اللتان امتلأتا وازداد احمرارهما، وخصلات شعرها القصير المضطرب دائماً، انها الحياة الفائرة هي التي تجذبه وتلفت نظره فيها. ثم خطرت الفكرة لزوجته أثناء ما كان يشاركها حساب مصاريفهم وديونهم. كانت تحس رغم عماها بشيء خفي في الجوّ بينه وبين سليمة. أخبرته أن باستطاعة سليمة ان تطلب من السيد زوجها تأجيل دفع الكمبيالة التي تستحق عليهم بعد أيام؛ ولم يدر بأيّ شيء يعلق على اقتراحها هذا، وبقي يتأملها، بعد ليلة او ليلتين، وهي تشرح الأمر لسليمة. كان ضوء المصباح الكهربائي قوياً، يسقط على وجه زوجته الأصفر من الاعلى؛ وكانت بعض عضلات وجهها بتقلص وتمتد أثناء كلامها، وجفنا عينيها الذابلتين يتحركان بسرعة أثارت اشمئزازه. وكانت سليمة تنظر اليه بعينين صافيتين وقد وضعت إحدى قدميها

فوق حافة المنقلة فانكشف له قسم ابيض من أعلى ساقها، ولم يبد عليها أنها كانت تنصت الى زوجته. ثم سألته بعد فترة سكون:

ـ شنو كمبيالة؟؟

ولم يصدق نبرة الاخلاص في صوتها. ولكن عينيها السوداوين الهادئتين حتى الجمود، نفتا عنه كل شك. كانت مجرد طفلة فُتح أمامها على حين غرّة منفذ الى عالم غريب القيم. وفرحت بصورة لم يتوقّعها حين أمسكت بالمعنى الذي يختفي وراء وجود الكمبيالات لدى زوجها ورهنه للذهب.

وكان في أسئلتها التي انهالت عليه بعد ذلك طابع واحد هو رغبتها الملحة في ان تعلم ان باستطاعتها تقديم خدمة ما، مهما تكن، اليه.. اليه بالذات. ولم يدرك لِمَ أدخل موقفها الغامض هذا، سروراً وحشياً الى نفسه. وعرف بعد ذلك أنها تخاصمت مع السيد وهجرته ليلتين متعاقبتين قبل أن يرضخ لإرادتها. وكان السرور الوحشيّ يؤلم قلبه.

كان الاستكان بين اصابعه فارغاً يكشف بؤسه للعيان، وكان خط المنضدة من وراء زجاجه العكر يبدو متلاشياً مع ارض الغرفة الدكناء. لم يكن ابو خليل في محله، وكانت الغرفة خالية موحشة. سمع وقع خطوات في الدهليز المجاور، تخافت رويداً رويداً ثم انقطع. كان يحس بحاجة الى الجمود، الى موت موقت يزيل عنه هذا الإرهاق التعيس الذي يفترسه. لم يكن امراً محتملاً ان يلبث هكذا

في عمل دائم ومحاولات مستمرة لأجل لا شيء. ولقد بدأ يتأكد أخيراً ان كل شيء يفلت من بين أصابعه، وأن أعماله كتابة مضطربة على صفحة الماء.

ولم يكن يفهم ماذا يعني ذلك. لعل باستطاعته أن يصبر، أن يقاوم؛ وكان هذا عنصراً آخر لا يفهم. إن في أساس تكوينه، الان، أن يعلم الى أين سينتهي كل شيء. وهكذا بدأ عذابه الحقيقي. أين سينتهي كل شيء؟؟

إن حياة الانسان امام الموت سخف لا معنى له، وهي بدونه مأساة مريعة لا يطاق التفكير فيها. وبالنسبة اليه لم يعد يطيق تفكيراً طويلا في حياته. صار يشعر أنه يتلاشى بسرعة حين يبدأ انغماساته الذهنية. إن كل المتع تفوته دون أن يعلم السبب. ولا يلبث أن يحس بنفسه منكمشا في زاوية مظلمة رغم شوقه القوي الى النور. ولكنه أراد ذلك يوما ما، أراده بالتأكيد. ولقد أغرق نفسه في هذا الالتزام المظلم الأسود، لأنه شعر بقلق على الوتر الإنساني في صميم ذاته. لعلّ التضحية كبيرة، ولكن مرارتها تزداد حين يجد ألا نتائج طيبة في تشبثه العنيد بنفسه. رأى يده ممسكة بريشة الكتابة وهي تطعن بها ورق النشاف الأبيض أمامه فتحدث فيه ثقوباً متجاورة. كان الاستكان على بعد قليل منه، موضوعاً بإهمال. إن هذا لا ينتظر شيئا، وهو لذلك لا يملك نفسا إنسانية. كانت في قعر الاستكان بقية من السائل الأحمر، تعكس أضواء الكوة الغامقة. لعل من الأوفق ألا نكون بشراً؛ لأجل ألا نتعذّب أو نقلق أو نلتزم. ولكن،

هل من حقه ان يفكر هكذا؟؟ لقد صدر الحكم في غيابنا، ولم تترك لنا سوى الحياة. ويبدو ان البحث عن العدالة خارج عن هذا الموضوع.

فتح الباب قليلا ثم أُغلق دون أن يدخل أحد. سمع عبيد يتكلم مع شخص آخر، فدق الجرس يطلبه. مضى بعض الوقت ولم يلبّ عبيد نداءه، ثم سمعه يقوم من الكرسي، وابتعدت خطواته. لم يشعر بحنق او غضب منه. كانت الغرفة ساكنة داكنة الضوء، وصفوف الأضابير متعالية حتى السقف؛ وكان وحيداً غير متماسك، لا يحس بأية رغبة في العمل وفي وضع أجوبة لأسئلة حياته.

بدأت المشادة بينهما أول دخوله الى الغرفة. ميزت زوجته حركاته وعرفته، فجابهته سائلة ببعض الحدة:

ـ أخذت معاشك؟؟

فهمهم بالايجاب ورمي مجلته على المائدة الفارغة. كان جائعاً متعباً ضجراً. قالت بعد قليل:

ـ يالله تعال نتحاسب

كانت جالسة على طرف السرير، واضعة يديها في حجرها. لم ينظر الى وجهها، وأجابها:

ـ خلي دناكل

فهتفت:

ـ شناكل؟ هذوله بعد ساعتين ما يخلصون الطبخ. البريمز خربان من الصبح

كانت عيناها طامستين في حفرة رأسها، وعظام خديها

البارزة تزيد في صفرة وجهها النحيل.

سألها ببلاهة:

- شنو؟

فاخذت تفرك اصابعها ببعضها:

- أگولك البريمز خربان مال بيت ام سليم. خربان، مادا تفتهم؟؟

لم يجبها. ماذا يمكن أن يعمل، اذا كان ما تقوله صحيحاً؟ لقد حيّره تدبير الطعام لهما منذ أشهر، ولم تستقر بهما الحال الا بعد ان عرضت عليه ام سليم تقديم وجبتي الغذاء والعشاء لهما مقابل سبعة دنانير شهرياً.سمع زوجته:

- بعدك هنا؟ وين رحت؟

- ما رحت. بعدني هنا

كان صوته أجش عميقاً. استمرت في كلامها:

- تعال نتحاسب. اكو علينا كمبيالات هالشهر؟

- أي

- ألمن؟ للسيد رجل سليمة؟ زين. ما ننطي. خلي يروح يشتكي. خلي يروح وين ميريد. ما ننطيهياه

كانت الكلمات تنقذف من فمها بسرعة، وعضلات وجهها وبقايا عينيها تتشنج وتتقلص مع كلامها. لم يرها على هذه الحال من قبل. سألها:

- شنو يعني؟

فصاحت:

- يعني ما ننطي ولا فلس. ما يستحي ولا عنده

غيرة. ليش الذهب مرهون عنده لو هو يخلي مرته تلبسه؟ سليمة خانم، آخر زمان. خلصوا الاوادم عيني

وكانت تشير باصابعها مؤيدة اقوالها بحركات شاذة لم يرها منها قبلاً. سألها وهو يحس بأعصابه يفارقها الهدوء:

ـ على كيفچ . منو گال سليمة دتلبس الذهب؟

كانت تنظر الى الارض وهي تصرخ:

ـ كل الناس يدرون. كل الناس ديحچون بيها. بس آني الخايبة الله ما ديفرجها علي.

ثم بدأت بنشيج طويل أعقبته نوبة من البكاء. كانت تضرب وجهها وصدغها بكلتا راحتيها، ثم تدق على صدرها بجمع يدها اليسرى. وكان صوتها الموحش والدمع السائل من حفرتي عينيها يبثان رعباً غير مألوف في قلبه. من هي هذه المخلوقة القبيحة؟

انها لا تمتّ الى البشر بشيء، الى البشر الذين يعايشهم ويحبهم ويريد ان يشاركهم زماتهم. أهي زوجته حقاً؟ تلك التي منحها ماء حياته ووجد فيها سروراً لا حدود له؟

كانت تجر شعرها المدهون الممشط، بحركات جنونية متقطعة؛ وكان صراخها مبحوحاً يعلو فجأة ثم ينخفض.

وقف مصعوقاً في محله قرب الباب. لم يدرك كنه هذه الحقيقة التي يراها امامه، وكان بوده ان يطلب منها السكوت؛ لماذا يجب ان تصرخ هكذا؟؟

ولمح الباب ينفتح بغتة. احس بحركته فالتفت اليه؛ وكانت هي هناك.. سليمة، تنظر عبره بعينيها السوداوين المندهشتين بشدة. لم تكن تضع الا حمرة خفيفة في الشفتين الممتلئتين، وكانت خصلات شعرها المضطرب تغطي قسما من جبينها. أدارت نظرها اليه متسائلة وعلى وجهها ظل من الخوف. لم يقل لها شيئا، وانتبه الى صينية الغذاء في يديها. تقدم بسرعة وتناولها منها ثم أشار اليها برأسه أن تذهب. ورأى قبل ان تغلق الباب تلك القطعة الشمعية من صدرها ظاهرة خلال فتحة الثوب الواسعة. كل شيء يمر بعيداً عن متناول يديه. لقد اخرج من المجرى مرة واحدة، ولم يجد الوقت ليتحسّر. ومن يدري، فلعل الحسرة لم تكن لتغير، آخر الامر، من منحرف الطريق. ماذا يعني إذن أن هناك أشخاصا آخرين معه، يهمه أن يزيد من معرفته بهم حتى ولو بذل من دمه في سبيل ذلك؟؟

كانت مستمرة على بكائها وعلى فرك يديها ببعضها. راقبها وهو لما يزل حاملا صينية الغذاء. كانت تلك الحركات منها تؤلمه الى اقصى حد. تمسك أصابع يدها اليمنى براحتها اليسرى ثم تعصرها بشدة فتنزلق تلك الراحة لتتشبث أصابع يدها اليسرى براحتها اليمنى فتخنقها بينها.. ثم، وكانت أنفاسه تتسارع كلما طال وقت مراقبته لها. إنها تعبر عن عالمها المحدود بهذه الحركات اللولبية المريعة، إنها تدخله في دنياها الموحشة، إنها تجذبه ليعمى معها. وصرخ بها:

ـ بس عاد تفركين ايديچ. مخبلة انت؟ سكتي. لا تصيحين. لويش هالبچة؟ تريدين تخبليني وياچ؟؟

ثم أسقط الصينية بعنف على المائدة، واستدار يتمشى خلال الغرفة. هتف بعد لحظات:

ـ لويش هالفصل كله؟ اريد افتهم لويش؟ لا تفركين ايديچ اكلچ. الناس خدامنا؟ يطبخون لنا ويداروچ ويغسلون الهدوم، وانت ملتهية تعقبين منو ديلبس الذهب مالچ.

عادت الى فرك اصابعها ويديها وبدأت تقول بصوت مرتجف أجش:

ـ سليمة دتلبس الذهب مالي. رجلها السيد دينطي ألها. دتلبس الذهب. ام علي الكردية گالت لي.. سليمة دتلبس الذهب مالي. احنا رهناه لو بعناه؟؟ احنا رهناه

كانت تتكلم بصورة آلية رتيبة أذهلته؛ وقف يراقبها وهو يحس ألماً شديداً يمسكه. وكانت هي مستمرة في نوبتها:

ـ ام علي الكردية تگول سليمة تلبس الذهاب مالي. هو السيد دينطيهياه. سليمة دتلبس الذهب مالي. لويش؟ احنا رهناه لو بعناه؟ لاع، احنا رهناه. لويش لعد سليمة تلبس الذهب مالي؟؟

والدموع لا تزال تضيء حول فمها المتقلص وفوق خديها الاصفرين. كانت هذه المخلوقة يوماً ما تسعده وتبهج

عالمه؛ وكانت فرحة تهب منها رائحة الربيع؛ وكانت جميلة دافئة تستطيع أن تضحك وأن تعبث وأن تحب. كانت زوجته، وكان يريد، مشغوفا، أن يحيا معها وأن يعيش سعادتها. لم يكن فيها كل هذا القبح والغباوة الحيوانية والضياع. إنها تؤلمه، تؤلمه.

كانت ساكنة منحنية بوجهها نحو الأرض، وشعرها اللماع منكوشا من جوانبه. رأى عظمة بارزة في إحدى كتفيها. خيل اليه أنه يراها للمرة الاولى. لم يألف فيها منذ الزمن البعيد، غير النعومة والامتلاء؛ وكان ذلك شبابها، حياتها. ولكنها الآن أمامه عجوز أغلق عالمها، ولا يبدو أن في إمكانه، في إمكان أيّ إنسان آخر، أن يطل على هذا العالم أو أن يعيش ديمومته.

رفعت يدها بهدوء وعصرت أنفها ثم مسحت مخاطها بطرف الثوب الأسود. راقب حركة يدها البطيئة والسائل اللامع الذي لوّث الثوب وجانب أنفها. لم تتبدل تقاطيع وجهها الا قليلاً، لكنها فقدت شيئاً ما، شيئاً مجهولاً كان هو كل شيء. وأحس بغموض ان له علاقة بهذه التقاطيع التي تموت. هل كان هو نفسه، شخصه، ما أضاعته هذه الملامح؟ وهل أخطأ، كان مخطئا منذ البداية؟

سمعها تتأوّه. كانت ضجة الغذاء خافتة في الطابق الأسفل، وأشعة الشمس تنفذ خلال قماش الستائر الأحمر. لفت نظره البخار المتصاعد من صحن الفاصوليا، فتذكر

غداءهم الذي لم يمسّوه.

قال لها:

- گومي اكلي

وكان صوته خشناً بصورة لم يتوقعها. أمسكت بحافة السرير ثم قامت واتجهت في تهجسها المستمر الى المنضدة. كانت نحيلة منخفضة الصدر، لا يظهر عليها انها تملك قوة للسير طويلاً. وصلت المائدة وتشبثت بكرسيهم العتيق ثم سحبته وجلست عليه. تأملها لحظات. كانت عروق يدها زرقاء نافرة وفي أناملها رجفة متصلة لاتكاد ترى. ماذا يعني ان يعيد ذلك السؤال المرير - أهي نفسها زوجته؟ لقد قيلت الكلمة، وبقى أن نستطيع معرفة ذلك.

كانت ممسكة بالملعقة، ورآها ترفع بتخبط مؤلم قسماً من الفاصوليا الى فمها فتتذوقها. وتحركت حنجرتها ثم سكنت، وسمع صوتها الاجوف:

- خيست بطننا من الفاصوليا

وعادت، في تخبطها، ترفع التمن الى فمها الملوث ببقايا المرق.

لم يحس رغبة في تذوق ذلك الطعام، وأبعد عينيه عنها، شاعراً بمزيج من القلق والغثيان يموجان في اعماقه.

كان ينتظرها منذ ساعة وبعض الساعة، جالسا على الكرسي الخشبي امام الباب المفتوح وهو يقرأ في مجلة

قديمة. نادى عليها زوجها منذ وقت غير قصير، لكنها لم تجبه. خيل اليه أنها تتباطأ في صعودها الى غرفة نومها؛ وكان يتمنى لو ألح السيد في ندائه عليها، الا أن مانعاً غامضاً أسكت السيد المتوحد وأبقاه صامتاً في حجرته، وحجرتها، ذات الضوء الباهت.

لم يعرف بالضبط السبب الذى جعله يصمم على محادثتها حديثاً ما، أثناء تجواله الممل عصر اليوم في شارع الرشيد. كانت تملك عنصراً يمتّ بعلاقة مبهمة الى وضعه النفسي، وكان يجد في الحديث معها تواصلا بين عالميهما لا يمكن التكهّن بنتائجه. إلا أنه لم يستطع البتّ في حقيقة أفكاره عنها، وهل هي كل شيء وكل ما يعتقده، ام أن في نفسه أمراً يتخاف عنه ويفتش عن منفذ في أعماله هو؟؟

وأخبر زوجته، قبيل خروجه، أنه سيحاول ان يقنع سيد هاشم بتأجيل دفع الكمبيالتين المستحقتين عليه هذا الشهر. لم يقل لها كيف سيحاول ذلك وبأية وسيلة؛ وكان يكلمها بلهجة حازمه لم تدع لها طريقا للمناقشة او البكاء.

سمع باباً يصفق في الطابق الأسفل فأرهف اذنيه. كانت الساعة تقارب التاسعة والنصف، ولم تعتد سليمة البقاء في غرفة اهلها حتى هذا الوقت. كان قد عاد بعيد مغيب الشمس، اثناء ما كانوا يتعشون، فوجد زوجته جالسة على القريولة وصحني الطعام فوق المائدة. كان الضوء ضعيفاً وجو الغرفة ثقيلاً لا يحتمل. نبهها الى الأكل فقامت بحركاتها الآلية اليه وازدردت بضع لقيمات منه. لم

ينظر اليها. كان واقفاً امام الباب المفتوح يستنشق نسائم المساء الندية. أمطرت السماء أثناء ما كان يطوف الشارع مطراً غزيراً مفاجئاً، الا أن الغيوم السوداء تسرع الآن نحو المشرق. سمع خطوات السيد وهو يصعد السلم ثم مر أمامه يضرب الارض بعصاه. ولم يتلبث الا دقائق في غرفته حتى بدأت مهزلة النداءات الطويلة على سليمة. سمع زوجته تطلب منه مرافقتها الى المرحاض، فتراجع من وقفته وامسك برسغها دون كلام ثم خرجا الى ناحية منعزلة مفتوحة من الطارمة. لم يحس ألماً او اشمئزازا وهو يجر هذه المخلوقة المتعثرة من الرسغ اليابس الى حيث تفرغ محتويات أحشائها. كانت أعماقه تختنق مشاعر محرقة لا تطاق، ولم يكن يحاول ان يعمل شيئاً تجاهها. أهو اليأس المطبق، ام النبل الفارغ الذى قد يخفي طاقة لتدميره وتدمير عالمه؟

فتحت حنفية في الطابق الاسفل وسمع الماء يتساقط منها، فأرهف أذنيه مرة أخرى. كان هناك شخص ما يغتسل. لعلها هي وقد أنهت طعامها. كانت انفاس زوجته النائمة ترتفع كلما انقطع صوت الماء. نظر اليها متمددة على السرير دون حراك. كان فمها مغلقا ونقرتا عينيها مظلمتين. رأى خيطا من اللعاب يلمع عند طرف فمها، فخطر له ان ذلك علامة على مرض ما لا يتذكر اسمه. نامت إثر الاكل مباشرة بعد أن مسحت فمها ويديها بمنديل مبلل. لم يجد اي سبب ليطلب منها البقاء مستيقظة؛ وراقبها من طرف خفي وهي تسحب اللحاف ببطء على جسمها ثم تغرق في

النوم بعد دقائق.

انتبه الى وقع اقدام خفيفة على السلم فقام من مكانه ووقف في إطار الباب. انكشفت له صفحة السماء الصاحية المليئة بالنجوم واحتوته برودة الجو. اقترب إيقاع الأقدام من محله ثم برزت سليمة من ظلام السلم. رأى عينيها أول الامر، ورأى تردّدها القصير حين وجدته ينتظرها. كانت ثيابها مائلة الى البياض وفتحة صدرها عريضة. وقفت برهة أمامه وفي عينيها اللامعتين سؤال مبهم. كانت تحمل كأس ماء وشعرها مضطرباً غير ممشّط. رآها تمر بلسانها على شفتها السفلى. همس،

ـ أريد اشوفچ

فهزّت رأسها واستمرّت تسير ببطء الى غرفتهم.

كان جسمها ضئيلاً فيه امتلاء غير متوقّع. بقي واقفاً في مكانه يراقبها وقد شعر بازدياد في دقات قلبه فأخذ يتنفّس بسرعة. رآها تفتح الباب فيُبرز الضوء انحناءات جسدها واضطراب شعرها، ثم طرقت أذنيه همهمات من السيد قطعتها نعومة صوتها:

ـ ما سمعت. امي چانت...

وأغلقت الباب خلفها واختلطت همساتهما مع بعضهما.

إنهما ذكر وانثى يجتمعان فوق سرير واحد؛

وسيمضي الليل عليهما كاتما السر المفضوح السخيف الذي يربط بينهما. عروسان حقا. تلك المجموعة من العظام الصدئة التي يدعونها سيد هاشم تضم كل هذه الليونة والبضاضة والفتوة. الا يتضمن هذا الوضع في اساسه جريمة لاعقاب عليها؟ ولكن منتصف الليل يبتلع كل شيء، حتى الجرائم الكبرى.

كانت السماء فسيحة واسعة تتلامع عليها النجوم، ونسمات من الهواء الرطيب تمر على وجهه بين هنيهة واخرى. وكانت الدار هامدة لا حركة فيها غير تلك الأصوات الغامضة التي تأتي من غرفتها. ماذا يعملان؟ ماذا يعمل بها، عليه اللعنة؟؟ وكان السكون ناشرا جناحيه على الكون. هناك لحظات صمت رهيبة تتفق الأشياء كلها لتحقيقها؛ حتى النجوم تنتفض بهدوء لئلا تقطع هذا الصمت. رأى خياليهما على الستارة الصفراء وهما يتحركان داخل الغرفة. إن وجودها معه يجب ان يرفض رفضا باتا، لان ذلك يزيد من شقاء العالم. وانفتح الباب بغتة، ثم انفلتت سليمة من فيض النور مقبلة نحوه بخطوات لينة.

لم يصدق عينيه. لقد أوقفت الجريمة، وليس هنالك من يستطيع ان يضمن تكرارها. ولم يفهم حركة يدها مشيرة اليه إن يتبعها الى الطارمة القريبة، حتى أحس بأصابعها الحارة تسحب يده، فسار خلفها نحو الظلام.

لم يكن هادئاً وهو ينظر الى ما يبين من شعرها

وظهرها؛ وكان يحس تخاذلا بسيطاً في رجليه وحرارة غير اعتيادية تسري خلال جسمه. دلفت نحو زاوية على اليمين وواجهته حين تبعها. رأى بريق عينيها وسمعها تهمس بصوت رقيق:

- گلت له رايحة... رايحة

واشارت باتجاه المرحاض القريب. لم يجبها ووقف يبلل شفتيه شاعراً بازدياد حرارته. كان تفكيره متوقفاً، لا يتبع سلسلة الأعمال الآلية التي يقوم بها. وكان لا يزال مذهولا منذ أول خروجها اليه من غرفتهم. هل كان يستبعد ذلك؟ ام كان يائساً منه بصورة نهائية؟

مسح جبينه المبلل براحة يده. وبقى يبادلها النظر بسكون. كانت ساكتة في تطلعها اليه؛ ولم يكن يرى منها غير عينيها واستدارة وجهها الشاحب وصفحة رقبتها. سألها:

- شيريد؟؟

فأمرت يدها على شعرها:

- شمدريني

ثم أردفت:

- شبيها سعدية اليوم؟؟

ازعجه ذكرها لأسم زوجته:

ـ ما ادري. انت دتلبسين الذهب مالها؟؟

فأجابت بسرعة:

ـ لاع. لويش؟ يا ذهب؟

ثم أخفضت رأسها نحو الأرض. هل تحاول أن تكذب عليه؟

كان يراها بوضوح كاف تحت ضوء النجوم وهي تمسح رقبتها وصدرها بحركات بطيئة. وماذا يعني ذلك؟ أليس من حقها أن تتزيّن؟

شمّ رائحة عطرة، أتته لحظة ثم جرفتها نسائم الليل الباردة. ما أسخف سؤاله عن الذهب. سألها برقة لم يتوقعها:

ـ خالة ريحة؟

فلم ترفع رأسها واهتزت خصلات شعرها قليلا وهو يسمعها تضحك ضحكة قصيرة. بقي ينظر اليها. تملّكه الحنين لضمّها بين ذراعيه بقوة ولاستنشاق عطرها الغامض. وفي هذا الليل المضيء، لن تكون جريمة أن تمتزج حرارة جسميها لتطفىء شوقه ولتبعث في نفسه راحة لا سبيل لها في وحشته الحاضرة. كانت على بعد خطوة منه، فاقترب منها.

خيل اليه أنه يرى ارتفاعي نهديها يبدوان لحظة ثم يختفيان، وكانت خصلاتها ثابتة فوق الجبين الشاحب. وخيل اليه.. ولكنه رأى ذراعه تمتد الى يدها الموضوعة على صفحة رقبتها

وتمسك بها. ماذا جرى لها؟ لم ترفع وجهها واستسلمت اصابعها الدقيقة اليه. همس:

- شوفي، سليمة

وكانت نبضات قلبه تهز أحشاءه وتطرق رأسه بعنف. أحسّ بيدها لزجة ناعمة بين أصابعه. همس مرة اخرى:

- شوفي، سليمة. تروحين للسينما؟؟

أنزلت يدها الى الأسفل ثم رفعت رأسها موجّهة نظرها بعيداً عنه؛ ولبثت ساكنة وقبضته تحتوي يدها. كان محدقاً في الملامح الرقيقة الشفافة التي تظهر له خلال الظلام الخفيف؛ وكان ينتظر كلمة منها، همسة لامعنى لها، وتعاد اليه الحياة من طريق مغلق. لماذا لم يخطر له كل هذا من قبل؟

إلا أُنها لا تجيب، لا تجيب. وكانت اللّذة الغريبة المذاق التي تبعثها يده فيه، تزيد من سرعة أنفاسه ودقّات قلبه. بلّل شفتيه اليابستين، ثم قال مقربا وجهه منها:

- اكو خوش رواية هالسبوع. اذا تريدين، نروح بمال العصر

وأراد أن يهتف بها أن أحداً لن يراهما لو تدبرا الأمر؛ وأنها يجب أن تعلم ماذا يعني هذا الطلب منها لديه؛ وكان مضطرباً بعض الشيء جافّ الفم. هل يمكن أن تفهم؟

وأحسّ بها تبتعد قليلا عنه، إلا أنها لم تحاول أن تسحب يدها، وكانت ساكنة وديعة. بعث فيه هدوؤها شعوراً

بأنها تميل الى كل ما يحدّثها عنه. وأنها قد.. قد تدرك أن نفسيهما تتشابهان، وأن مصيرها متّصل به. وكان شحوبها ممزوجاً بصفرة فضّية، وعيناها تعكسان بريق النجوم. التفتت ببطء ورفعت نظرها اللامع اليه لحظة، ثم عادت الى ابتعادها.

مد يده وأمسك كتفها اليسرى برفق. أحسّ برجفة تنتابها وأنزلت الكتف الناعمة، إلا أنه تشبّث بها وسحبها قليلا لتستدير نحوه. وعادت اليه عيناها، بحيرتان سوداوان ملتهبتان، فهمس:

- ما تگدرين سليمة؟؟ ها، عيني؟؟ جاوبيني. ليش ماداتحچين؟؟

كان يتوسل أمام عينيها وأمام فمها ووجنتيها، أمام الحياة التي تهرب منه؛ وكان يشعر بذلة تعصر قلبه. رأى شفتيها تتحركان وسمعها تجيبه:

- ما أدري. اخاف من امي

فضغط على كتفها:

- شنو؟؟

فأدارت رأسها عنه وكررت:

- اگولك أخاف من أمي. إذا حست بي..

وقطعت كلامها. شعر بها تحاول أن تخلّص أصابعها

من يده، فشدّد قبضته عليها. هذه الطفلة! هذه الطفلة! لماذا لا يزال يأمل في أن تفهم ذلك الشيء، ذلك الشيء المبهم الذي يربط بينهما؟ كان شعرها مضطرباً وخصلاته تتهدل على رقبتها وقسم من وجهها وجبينها، وكانت عظام كتفها ملساء لا تخفى طراوة اللحم الذي يغطيها. حملت اليه نسمة خفيفة نفحة من عطرها، فاستنشقها بقوة. أحسّ بنشوة غامضة تملأ صدره مع الهواء البارد المعطر. همس:

- سليمة

وتوقف قليلا ينصت الى الاسم الذي فاه به:

- لازم نطلع سوا. لازم تگدرين. ليش ماتگدرين؟؟ لويش تخافين من امچ؟؟

بقيت جامدة ساكنة كأنها لم تسمع شيئاً. خطر له بغتة، وهو يحس حرارة يدها وليونة كتفها، أنها قد لا تمانع لو حاول أن يتّصل بها الآن، في نفس هذا المكان. لا يعلم كيف واتاه هذا الخاطر. كان في وقفتها وفي الظلام الذي يحيطها والعطر المنبعث منها، مايوحي بمثل فكرته. لعلها ستتبين في آخر الامر أنها كانت تضمر له، دون علمها، حباً عظيما لا مثيل له.

ترك يدها وأمسك بذراعها فاستشعر برودة اللحم اللين. كانت تلبس ثوبا فاتح الزرقة يكشف عن ذراعيها حتى الكتف وعن رقبتها وأعلى صدرها. أراد ان يدير جسمها ناحيته، فقاومت حركته وأبقت نظرها بعيداً عن

وجهه. كان فمه يابسا كالتراب، وأطرافه مشدودة الأعصاب بصورة مؤلمة. إنها تحبّه. إنها تحبّه دون شك، ولكنها تجهل كل ذلك. وهـو لا يعلم ماذا يجب أن يفعـل إزاء هذه المسؤولية الغريبة التي فاجأته. حاول مرة اخرى ان يسحبها نحوه فلم تطاوعه. كانت تدفع كتفهـا وتنصرف بـرأسها وجسمها عنه، وكانت تفعل ذلك صامتة.

أحس، وهو مذعور، بالخجل يتسلل الى نفسه. إن هذا يفسد كل شيء، ويحيله عاجزاً مشلولاً رغم تأكده من حبها له. كان الظلام خفيفا يسترهما عن العيون، ولكنه لا يستره عن نفسه، وعن وجهه الآخر. جذبها بشـدة اليه فارتطمت كتفها اليسرى بصدره. راى رأسها قـريبا منـه فانحنى عليها. كانت خصلات شعرها ناعمة داعبت وجنتيه وعينيه. لم يلمح من وجهها غير الخد الشاحب فوضع شفتيه الحارتين عليه. كان باردا ناعما، ناعما؛ فيه رائحة الصابون والعرق. أحس بها تدفعه بذراعيها محاولة أن تتملّص منه. كانت ملتصقة به فضغطها الى جسمه. سمعها تهمس وهي تلهث دون ان تنظر اليه:

- لاع.. لاع

ثم تركها بغتة. أفزعتـه كل هـذه الأعمال التي لم يتوقعها من نفسه قط. شعر بتخاذل وارتجاف في أطرافه أثناء ما كان يضمها اليه وتمس ركبته فخذها. ترامت على الحائط وراءها، وأخفضت رأسها الى الارض فانسدل شعرها على وجهها وأخفاه. لبث يراقبها خـلال الظلام الشفـاف. لم

يصدر منها صوت ما، وكان منهوكا مرتجفاً يتنفس بسرعة وعمق.

وبقيا، تحت السماء السوداء، كحيوانين جريحين يخشيان الحركة. لم يفهم لماذا انقلب اجتماعه السعيد بها الى مأساة صغيرة، وكان ذهوله أقوى من الإعياء الذي يهدّ جسمه. لقد أفسد كل شيء جميل في نفسه عنها، وحطم تلك الصلة الموهومة المبهمة التي بنى عليها آمالا كباراً، آمالا مضحكة.

رآها تعتدل في وقفتها ثم تنساب جنبه كالشبح الخائف. لم يلمح وجهها إلا في لحظة خاطفة على الضوء الباهت. بدت له تقاسيمها يكسوها انطباع مرير بالألم والذل؛ كالطفل البريء يعذّب دون أن يعلم السبب في ذلك وغايته. هل آلمها هكذا؟

وشم نفحة خفيفة من عطرها الساذج قبل أن تختفي في الظلام. سمعها تفتح باب غرفتهم وتغلقها دون ضجة، وكانت الدار ساكنة والنجوم تخفق بصمت في سمائها العارية.

شرب كأس ماء قبل أن يتهالك على الكرسي العتيق. لم ينظر الى زوجته، واكتفى بالاستماع الى أنفاسها المنتظمة ليعلم أنها لا تزال تغطّ في النوم. كان ضوء الغرفة أحمر ضعيفا وعلى المائدة الملطخة إناءا الطعام الفارغان. مسح

جبينه المغطى بالعرق، ولبث دقائق وهو يتنفس بعمق منتظرا هدوء نبضات قلبه المضطرب. كانت بقايا الفاصوليا في قعر الإناء تثير اشمئزازه زغم جوعه. تصوّر لحظة أن في معدة زوجته شيئاً من هذا الطعام. هز رأسه الثقيل ثم أغلق عينيه براحتي يديه. كان يستشعر ضجراً وجموداً في ذهنه. لماذا يجب أن نفكر على الدوام؟ أن نبحث ونؤكد باستمرار أننا نفعل كذا وكذا، وأننا ضيّعنا كذا وكذا؟؟ ولمن كل هذا؟؟ أراحه الظلام، فبقي واضعاً يديه على عينيه. لم يكن حزينا كما عرف الحزن، بل متبلّد الأعماق؛ لا يحس في داخله غير خمول حيواني منحطّ. هل فقد، بضربة واحدة، ركناً أساسياً من ذاته؟ وُسليمة؟؟ بدهه الاسم الذي نبع في نفسه كالشمس. هل سيستطيع أن ينسى ذكرها طويلاً؟ وتخيّلها تتكأ على الحائط بظهرها، وشعرها منسدل وذراعاها مسبلان. ثم رأى وجهها مرة اخرى حين مرت قربه مهانة حائرة متألمة. وخدها البارد الشمعي؟ لقد طبع قبلة عليه، قبلة ذات معنى وحشيّ لا يحتمل.

وأحسّ بنفسه وهو يهزّ رأسه من جهة لأخرى نافضاً عنه تلك الصور. إنه يرفض ذلك، يرفضه متأخّراً كعادته. وعبثا كانت قبلته رثّة كقبلة الجرو، لقد أذلّها بها وأخجلها. ولم يستطع هو ان يخجل قبل ذلك. وسيترك نفسه، سيترك، ليتآكل خجلا وذلا.

رفع يديه عن غينية فعادت اليه المائدة البالية وصحنا الطعام وضوء الكهرباء الأحمر. هل كان هناك ما يخجل

منه؟؟ تثاءب طويلا. ولكنه سيملّ كل شيء في يوم من الأيام. نظر تجاه سريرهم. كانت تدير ظهرها اليه واللحاف يكشف عن كتفها وشعرها اللامع المتهدّل على المخدّة. ما كُنْهُ هذا الوجود الكئيب؟؟ ما معنى أنه يوجد؟؟

لقد ضاع شيء ما منها بضياع نظرها؛ وهل يعني التزامه المعيشة معها، إلا أنه في طريقه ليفقد مثلها الشيء الجوهري الذي فقدته من قبله؟؟ سيفقد كل شيء إذن. ومن ينجينا من الإنسان الذي سنكونه؟؟

قام الى الضوء فأطفأه. نعم، من ينجّينا من الإنسان الذي سنكونه؟

صرّ السرير تحته حين قعد عليه ثم اضطجع وسحب اللحاف على جسمه. غرقت الغرفة بظلام فاحم سرعان ما بدأ يبهت تحت ضوء النجوم المتسلل من النافذة. كانت الستارة منحاة الى جانب، تكشف عن السماء المتلألئة. فاضت الغرفة بالأحلام حين ملأها الظلام وأطلت عليها السماء من بعيد. كان ضائعا يفتش عن وهم ما يمكن أن ينجيه، أن يبعده عن سجن أفكاره وذكرياته القريبة. وكان الظلام مساعداً على إمكانية خلق سراب ما، سراب يعصب العينين في طريق مليئة بالمهالك. وسليمة؟؟ هل كانت هي أيضاً سراباً سيطر على عقله دون أن يدرك ذلك؟ وهل انكشف له ذلك الآن؟؟

أحس وخزة خفية في صدره. بدأت ذكراها تثير

شجنه، كمنت خلف نفسه لتزيد في تعميق جروحه. وكل هذا؟ ما أسرع وقوعه!

انقلب على جنبه الأيسر وواجه النافذة الطويلة ذات الستارة المنحاة. لم يسمع حركة في الدار، وكانت أنفاس زوجته ثقيلة يتخللها توقّف بين هنيهة وهنيهة. ماذا يجري لسليمة؟ ماذا يجري في غرفتها؟؟ لقد أُعيدت الدورة، وها هو منتصف الليل الساكن يبتلع جريمة أخرى. ونحن مطمئنون مع ذلك الى حياتنا التي لا تقطعها جريمة ما. لم تكن قبلته، التي تدعو للرثاء، على الخد البارد إذن، الا هوّة سحيقة انفغرت بينهما. ولكن، ماذا يمكننا ان نعمل أمام الانسان الذي سنكونه؟ إنه مخلوقنا، وهو الإلّه الذي لا يردّ.

أُحسّ بعض الاضطراب يساوره. لم يكن خائفا من أفكاره، ولكن جدتها ومباغتتها أثارت قلقه. ماذا يعني أننا سنوجد في المستقبل؟؟ ستستمر حياتنا، عواطفنا وأفكارنا وسنستطيع أن نحكم على حاضرنا كماض؟. ماذا يعني ذلك؟؟ إنه ليس المصير، ليس المصير على الإطلاق. ما هو إذن؟؟

كانت أعصابه وعضلاته متوترة مشدوده تحت اللحاف، وكان يحس نشاطا لا مثيل له في ذهنه. إن هناك أمراً لا بدّ أن يفهم وأن يعاش، لأن أهميته قد تفوق الحياة نفسها. لأن من المحتمل أن يكون هو الذي يعطي للحياة كل معناها وأساسها.

وخيّل اليه، في الغرفة المشبعة بالظلام الباهت وبالأحلام، أنه لا يبعد الا خطوة واحدة عن اللغز المريع الذي حكم ماضيه والذي سيسطر حلّه على أيامه القادمة. شعر أنه مستوحش وحيد في موقفه، ولم يكن جازعاً من المجهول.

لقد أراد دائماً أن يجد تبريراً لحياته. تذكّر الضربة التي أصابته على رأسه في المستشفى، في تلك الليلة المشؤومة. إنه لما يزل لا يعرف عنها شيئاً، لكنه لا يعتقد أنها جرت عفوا وبمحض صدفة. شعر بقشعريرة تخترق جلد رأسه بخفة. ومضت لحظات عليه، وأتاه بعدها توقف مفاجىء في نشاط ذهنه وهبوط في حيويته. إنه يلج أسراراً لم توجد لها الحلول بعد. تملّكه ضيق شديد عصر قلبه وكيانه كله، فانقلب على ظهره ثم تنفّس نفساً طويلا.

لم يرتح، وبدأ توتّر جسمه يؤلمه. كانت الغرفة دافئة، لا يظهر من سقفها غير خطوط تتموّج في الظلمة. التفت الى النافذة. كانت السماء لامعة صافية. شعر بحاجة الى القيام والتطلّع اليها. قد تمنح هذه الحركات راحة لجسمه المتعب. لم يتحرك، وبقي ينصت الى أنفاس زوجته. إنها تنام بهدوء، ولعلها لا ترى حتى أحلامها الماضية. خطر له بغتة أنه لم يطرح امام سليمة موضوع الكمبيالات المستحقة هذا الشهر. لم يأت ذلك على باله قط. ولم يتصور لحظة، حين كلم زوجته عنها، أنه سيعمل كل تلك الحماقات المخجلة مع سليمة. ولكن، لِمَ كانت مخجلة؟

إنها تعبير عن رغبات كان يحسّ أنها مخلصة. أفلا يكفي إخلاصها؟؟أهي النتائج إذن التي تخجله؟؟ أيعني هذا انه لو دبّر اتصاله بها ثم اقنعها بان ترغم السيد على تأجيل الكمبيالات، لما احسّ خجلاً او ذلاً؟؟

من يدري، ولكنه سيكون مجنوناً لو صدق ذلك. ان أعماله مدانة قبل أن يقوم بها؛ وليس عبثاً أن تلتصق هذه الزوجة به أبد العمر، وأن يجبر على دفع كمبيالات مستحقة دائماً. ولكن، ألا يجب أن تكون هناك جريمة ما ارتكبها، ليتبعها عقاب ينزل به؟؟

إلا أنّ كل البشر مدانون مثله، ولقد اتُّهموا وصدر الحكم عليهم قبل أن يوجدوا. وما أمرّ هذا، ولكن ما أسخفه! أنه كلعبة الأطفال التي تستمرّ بعناد على عدم الاختلال. إلا أننا يجب أن نعلم معنى أن نوجد. أن الولادة سخيفة وآلية وحيوانية، وكذلك الماضي. وما يهمّ حقاً هو «الآن». ولكننا لا نتجرد وننفض الماضي او تلك العملية الآلية الحيوانية. إننا نضع أنفسنا أمام الماضي؛ أمام المخلوق الضعيف ذي الأحلام الفارغة الذي كنّاه. أمام الطفل الفقير في بعقوبة الذي لا يتقن الكتابة ولا القراءة بلغة أجنبية، امام العاشق الرقيع الذي يتابع فتاته ويخشى أن تراه، أمام الزوج.. آه.. الزوج الذي تعب من كل شيء فأراد ان يقوم بالمعجزات.

قام من ضجعته وسار الى المائدة ثم جلس على

الكرسي بمواجهة النافذة. لم يشعل الضوء وبقي يراقب ما يبين له من السماء وخشبة المحجر. كان في غمرة فيضان عاطفي مؤلم. لم يدر لماذا واتته كل هذه الأفكار والذكريات. كان يحسب أن بمقدوره طردها اذا شاء؛ ولكن، ها هي، تفترسه وتبدأ بذهنه وقلبه أول ما تبدأ.

أحسّ برودة في ظهره فمدّ يده وفركه قليلاً بهدوء. أليس من الحماقة أن نفكر بأنفسنا ونبتّ بمستقبلها في ليلة يملكنا فيها البرد؟؟ سمع باب غرفتها يفتح ويصدر عنه الصوت المألوف الذي يعرفه. قام بخفة قرب النافذة. كان ضوء النجوم ينير الطارمة الضيقة أمام غرفتهم. سمع أقداماً ثقيلة تطرق الارض ببطء، أعقبتها قحة خافتة. ترى من يكون؟؟ ورأى الشبح النحيل المنحني الظهر يمر امام النافذة، وأدهشه ان يرى السيد يستطيع السير دون عصاه. كان يقصد ناحية المرحاض، وهو يتشبّث بالمحجر الخشبي.

لبث ينصت بتذمر الى الإيقاع المشوّه حتى تلاشى فجأة. لم يخطر في ذهنه أيّ شيء. كان خالياً كقلب الطفل، وبقي يتطلع الى النجوم.

كانت الليلة هادئة باردة والسماء صاحية سوداء، لا يبدو منها أن المطر قد يسقط غداً.

(٥)

تركوا «خان بني سعد» وراءهم وخرجوا الى الفضاء الـواسع. كـانت الشمس بيضاء تغـرق الطريق والسيـارة بفيض مستمر من أشعّتها الحامية. لم ينقطع الجالسان قربه عن الثرثرة رغم حرارة الجو. وكان يحس برأسه يتصدع ألماً وهو يجد نفسه مضطراً خلال دقائق طويلة لسماع حديثهما السخيف. لم ينم جيـداً، ولا يـدري لماذا استيقظ منـذ الصباح الباكر مع علمه أنهما لن يسافرا قبل العاشرة. وها هو يدرك الآن معنى ألّا ينام الإنسان. كان يشعر بمثـل الحمّى الخفيفة تنتابه وتتركز في عضلات رجليه المتصلّبتين. لم يرتح في ذهابه الى بعقوبة، وها هي العودة تكاد تمرضه.

أغمض عينيه. لا عجب ان يقع طريح الفراش. ان التعب يقطر من كل جزء في جسمه. أهلكته هذه الايام القليلة الماضية. وكان هذا اليوم قمة متاعبه. لم يعتد أن يسافر صباحاً ثم يعود قبيل الظهر؛ دون طعام، دون راحة. جلس في المقهى قرب محطة القطار، بعد أن أوصلها، ولم يخطر له أنه قد يجوع بعد ساعة او ساعتين. شرب الشاي فامتلأ فمه بطعم كريه، أعقبته نوبات غثيان مريع شعر فيها أنه يحتضر. وزاد من ضيقه رؤية ذلك الرقيع عبد الوهاب وتعامي هذا عن كل شيء إلا عن شوقه المزعج

لصديقه القديم.

فتح عينيه، فبهره الضوء القوي وأحس بكرتيهما تتقلّصان بشكل مؤلم. كان الحرّ شديداً داخل السيارة، ومجرى من الهواء الساخن يمر على خده الأيسر. تطلع أمامه عبر رؤوس الجالسين فرأى الطريق المقير يمتد كالسهم الأسود.

سمع أحد الجالسين قربه يتكلّم بحمية:

ـ مولانا آني اعرف شغلي. شنو كوكو كولا، شنو بطيخ. آني اگولك ديخسرون. لويش ما ديخلون طمغة الشركة على القبغ؟؟ ها؟؟ أشوگلي؟؟ كل القبغات هالايام طمغة سز، شنو يعني هذا؟؟

أجابه الآخر:

ـ ماكو هيچي حچي. اول البارحة شربت ببسي وشفت طمغة هالكبر على القبغ.

فصرخ صاحبه:

ـ شنو ببسي؟ دا أگولك كوكو. كوكو كولا

ـ هم هذولة شركة وحدة، صنف واحد

فاستمر الآخر على صراخه:

ـ وين اكو هيچي لغوة. مولانا كل وحدة شركة ببسي وحد، كوكو وحد

فتدخل السائق السمين بصوت خشن هادئ:

ـ ثنينهم فد ترتيب. اخوة من اب وام

فالتفت الاول اليه:

ـ شنو ياب؟؟

فلم يجبه السائق ومد يده فأدار آلة الراديو الصغيرة. عاد الاثنان الى ثرثرتهما.

شعر ضيقاً هائلاً في قلبه. كانت الأرض الترابية الحمراء تسرع تحت بصره، وفي طرف الأفق لمح خطا أخضر قصيراً. دون جدوى، كل ما يعمل. ماذا يملك زيادة على ما يملكه هؤلاء؟؟ إنهم يعيشون، يعيشون. ولكن هذا لا يعنى شيئاً، يجب ألّا يعني شيئاً. لأنه مثلهم يعيش ويعلم أنه محكوم أن يعيش وأن يشابههم. الا أنهم يقفون عند حد الحياة الحيوانية، ليتركهم هو الى أزمات.. هل هي إنسانية؟؟ ولكنهم لا يعرفونها على أية حال، وهي لا تخطر بالضرورة على بالهم. لماذا نسمّيها إذن.. أزمات إنسانية؟؟ إن قليلاً من البشر يمرّون بها، فهل هم وحدهم الذين يمثلون الإنسان على الأرض؟

سمع أحد الجالسين يتكلم:

ـ شوف، هذا الحصان بعده ما مات

كان واقفاً كالحجر قرب منحدر أجرد تحت الشمس اللاهبة ورأسه ورقبته منخفضتين عن مستوى جسمه. تذكر

فجأة انهم رأوه حين ذهابهم الى بعقوبة. كان لونه أملح يميل الى السواد وجسده مليئاً بالبثور والكدمات. لم يلفت بصره آنذاك، إلا أن منظره يؤلمه الآن. كان استسلاماً مريعاً للموت؛ ولكنه لا يزال يشترك مع بقية المخلوقات في هذه الحياة. إنه يعيش مثلهم، على شفا الهاوية. كانت عظامه بارزة تحت الجلد، ومنخفض بطنه يكوّن ظلاً عميقاً.

سمع المتكلم يستمر:

- هذا صار له خمسة ايام على هالشكل

كان الجميع ينظرون الى الحصان دون اكتراث. تكلم الثرثار قربه:

- هذا وجعان مولانا. لاكت هسه ما يموت. يبقى اسبوع لاخ طيب

- أي، يبقى. بيه حل

- آني شايفه من يوگع. هذا يبقى واگف مولانا هالشكل ليل نهار. ميصير عليه شي. لاكت، شوف خلقة ربنا، من يحرك رجليه يريد يمشي يوگع فد وگعة. ويبقى يعالج فد چم يو لاخ الى ان الله يفرجها عليه ويموت

- استغفر الله

- خلقة ربنا. صوچ صاحبه مولانا. جان لازم يرميه

علقت عيناه بالحصان حتى اختفى عن نظره. شعر ألماً داكناً يغرق قلبه بهدوء وهو يتصور الأرجل العظمية تنثني

فيرتمي الجسد النحيل رميته الأخيرة على الأرض. أهو حقاً نتيجة لعمل من اعمال الله؟؟ وما دخل ذلك الأعرابي البليد، صاحبه، حين بخل عليه برصاصة تريحه الى الأبد؟ هل يعني هذا ان نتائج الله تتوقّف أُحياناً على اهمال إنسان تافه؟؟ واذا لم تحدث مرة، فهل يوجد أي شيء بعد ذلك، أي سبب، أية نتائج؟؟

كان جو السيارة لزجاً حاراً كريه الرائحة. لم يدر الى أية جهة يضع بصره؛ فكرتا عينيه تؤلمانه كلما تطلع الى الخارج، ووجوه الجالسين تثير اشمئزازه وكآبته. انتبه الى غناء خافت ينبعث من الراديو وتغرقه ضوضاء السيارة قبل أن يميزه. مر بيده على جبهته فأحس بالعرق يبللها. أخرج منديله فمسحها ببطء. لاحظ رقبة الجالس قربه الضخمة الحمراء المبللة. لم يبد عليه أنه يشعر بالحر او بالعرق، وكان يتكلم بهمس أثار استغرابه. هل يملك سراً ما؟؟ سراً محرقاً هو لباب حياته؟؟ ومن أين يمكن أن يتجمع هذا الشحم لو احتوى الجسم أسراراً لا تحل تحرقه باستمرار؟؟

سمع احد الجالسين يكلم السائق:

ـ ما تعلي حس الراديو، منو ديسمع؟؟

لكنه سرّ غبيّ لا يتعدّى قناني الكوكو كولا. أدار نظره نحو الخارج. كانت السماء خفيفة الزرقة مشعّة الضوء، وعلى جانب الطريق خرائب يحتمي بظلّها بعض الرعاة. سمع صوتاً رقيقاً من الراديو «ليش بس تشوف

عيني، بيرتعب قلبك» فأحس موجة من فيض عاطفي مبهم «.. غير هيك ما بحبك، غير هيك ما بحبك يا خيي» وتبع ذلك لحن بسيط ساذج.

كانت له ألفة بهذه الأغنية وبالصوت الرقراق الذي يهمس بها. أنصت اليها عدة مرات في مقهى حسن عجمي خلال الأسابيع الماضية. «ليش بس تشوف عيني، بيرتعب قلبك». عيناها؟؟ عيناها في المساء، عيناها في الليل تحت الضوء الشاحب، عيناها في أحلامه، عيناها في حياته. أخذه الذهول وهو ينغمس في ذكرياته، فأتكأ بكتفه على جانب السيارة.

كانتا، عيناها، سرّين يتبعان أفكاره وتصاميمه. رآهما يتألمان في مدفنيهما المظلمين، رآهما يعلمان ما يريد لهما. ماذا بقي من تلك العيون لتستطيع ملاحقته؟؟ لم تحدثه بشيء منذ أن هجس في نفسها أنه يدبّر لها مصيراً لا ترضاه؛ تسلّل اليها السكون بارداً فأحالها مخلوقاً لا يمتّ لعالمه بصلة. ولم تكلمه قط، لكن عينيها وأصابعها ترقبوه وجادلوه ثم تضرعوا اليه. «بمحبتي ما بريد تتولع، تحكي علي الناس» وكان ضعيفاً حائرا. خشي أن تسأله ماذا يعني ذهابهما الى بعقوبة، ماذا يعني ذهابها الى أهلها. الا أنها لم تفعل، وكان صمتها فهماً واستسلاماً. وجمع حوائجها كلّها وحشاها في حقيبة قديمة. كم كانت ثيابها رثة! ونهضا مبكرين. كانت تعلم أنه سيوصلها ثم يعود الى بغداد في نفس اليوم، قال لها إنهم لم يمنحوه إجازة في الدائرة، ولعله سيستطيع أن

يصل قبل نهاية الدوام. كان يكذب عليها، وكانت تعلم ذلك. وودعت ام سليم وقبلتها، فبكت ام سليم ولم تبك هي. كانت تقاطيعها متقلصة جامدة، ووجهها شديد الصفرة بين العباءة السوداء. سارت معه متشبثة بيده؛ لا يزال يحس أصابعها على رسغه. وبقيت تمسكه بعد جلوسهما في السيارة، فنبهها فسحبت يدها وأدخلتها تحت العباءة.

كانت تجلس بسكون جنبه، ملتفة بعباءتها رغم حرارة الجو الشديدة. شعر أنها تريد أن ينتهي كل شيء، وأنها راضية عن آلامها. رأى العرق يتجمّع فوق جبهتها وتحت نقرتي عينيها، ولم يبد عليها أنها تحسّ به. سألها أن ترفع عباءتها قليلاً وتفسح المجال للهواء، فلم تجبه. كانت في عزلة مخيفة، وكانت توحي له بوحشة تعصر القلب. لقد سحقت نفسها تحت مصير صدفي، ولم يكن له يد في ذلك؛ ولا هو يدري لماذا يتألم في محاولته الخلاص من مصيرها هذا. كانت متشبثة به، وكان وجودها معه يكفيه ليموت. ولكنه يتألم، يتألم ألماً خبيثاً. لم يرد هذا الثوب المرير لأفكار ظنها نبيلة إنسانية.

انتبه على السيارة تقف فجأة قرب مقهى، وعلى السائق ينزل منها. سأله احد الركاب:

ـ خير انشالله؟؟

فاجابه السائق بهمهمة:

ـ ينراد لها ماي

ثم مضى داخلاً المقهى .

كان الراديو مغلقاً، والصوت الرقراق لا وجود له؛ وكانت الشمس تلفح بأشعتها البيضاء المتوهجة سقف المقهى الطيني والأرض الفسيحة وراءه. خطر له أن ينزل من السيارة ويتخلّص لفترة من جحيمها الخانق . فتح الباب فضرب وجهه هواء حارّ سريع وشعر بحرارة شديدة على رأسه. آلمته عيناه فأغلقهما لحظات نصف إغلاقة. سمع ضوضاء السائق وهو يحمل دلو الماء ويصبّه في الماكنة. كان الجالسان قربه قد خرجا الى جهة منعزلة يتبولان، بينما بقي الآخران في صدر السيارة يستمعان الى نشرة الأخبار بعد أن فتحا الراديو إثر ابتعاد السائق

أحسّ، في وقفته، بضعف في رجليه فأمسك بطرف الباب المفتوح. تذكّر أنه بأشد الحاجة الى شيء يأكله والى ساعات طويلة من النوم العميق. لقد انتهت بسلام كل تلك السلسلة المملّة البائسة من المحاولات. وها هو، خلال أكاذيب غير بالغة القذارة، يستطيع أن يدّعي أن له الحق في احترام نفسه. إن قلّة من الناس يفعلون ما فعل. قلّة بمقدورهم أن يضحّوا في سبيل تكامل ذاتيّ غير مبتوت بوجوده. ولكنه كان يكرهها كامرأة، وإن أشفق بشدّة على بؤسها. ألم يكن هكذا؟ وهل يكفي امرأة ان يشفق عليها؟؟ ولكنها لم تعمل شيئاً ضده، لو تركنا كل أمر آخر على جانب. كان يهمها ألاّ تخسر شفقته بعد أن يئست من حبه. ولم تستطع ذلك.

أفزعه هتاف السائق بصوته الأجش:

- تفضلوا يا جماعة

فأسرع الى محلّه. شعر بحرارة فظيعة في ظهره وفي رأسه ووجنتيه وهو يتكىء بظهره على حشية المقعد. هب عليه مجرى الهواء الحارّ فلعب بخصلات من شعره. كان الجميع سكوتاً منكمشين تحت السقف الملتهب وماكنة السيارة تهدر كالثور. رأى في الأفق أمامهم خطوط بنايات بعيدة، ثم سمع أحد الركاب يسأل:

- هاي بغداد الجديدة؟

فاجابه السائق:

- نعم سيد. هذاك السگف العالي يعود للريسز. اليوم ماكو لعب. جعلوا اللعب يوم الجمعة والسبت والأحد.

ثم تنحنح وبصق.

هل سيصلون إذن؟ سيأكل ويرتاح وسيعلم ماذا يعني أن نحقّق ما نريد؟؟

لم يحسّ فرحاً، وهجس في نفسه أن من العبث أن يفتّش عن مثل هذه الأمور بعد الآن. إلا أن هذا لم يكن ملائماً له؛ لقد كان هناك هدف ما في احد الأيام، فهل نالهُ؟؟

لم يرتح الى ما يدور في ذهنه، فعدل من جلسته

ومسح العرق عن جبينه. كان يدرك بصورة مبهمة حمق التفكير في الهزيمة دون سبب.

هبّ من نومه الثقيل فجأة فجلس في الفراش وهو مضعضع الذهن. لم يدر السرّ في يقظته المزعجة. كانت الغرفة ساكنة خانقة الهواء، وحزمة الشمس الحمراء على جهة عالية من الحائط؛ وكان فمه جافاً ورأسه منتفخاً كالدملة. انطرح على السرير بعد عودته كالجثّة المحنّطة، فأخذته غيبوبة النوم رغم حرارة الغرفة وصداع الرأس.

مسح جبهته ووجهه فتبللت يده بالعرق، فأعاد مسحها ثانية. كانت أنفاسه مضطربة وفي قلبه خفقان غير عادي. رأى باب الغرفة مغلقاً، فقام بتثاقل وفتحه. بدت السماء زرقاء في حمرة خفيفة لامعة. وأتته ضوضاء الجماعة في الطابق الأسفل. إنهم يشربون الشاى، ولعلهم سيتعشّون بعد ساعة ثم يصعدون الى السطح ليرموا بأجسادهم على السرر بكل شوق؛ ثم ليبدأوا في الصباح التالي يوماً جديداً.

أما هو. رأى نجمة صغيرة خلال فيض الحمرة المتلاشي، وكانت تتلألأ كالجوهرة بغبطة وبهجة. شعر بارتياح في تطلّعه الى السماء وبالهدوء يتسرّب الى نفسه. ماذا يكمن فيه فيجعله منفصلاً عن هذه الأشياء الجميلة؟ أهي الحياة؟ وما معنى ذلك؟

انتبه الى حركة عن يساره؛ كانت سليمة تغلق باب

غرفتهم. استدارت اليه فجذبته في عينيها ضحكة لم يفهم سببها، واقتربت منه حتى صارت على بعد خطوتين:

- مساء الخير

كانت ترتدي ثوباً وردياً باهتاً وتضع حمرة خفيفة في شفتيها وخدودها. شعر بانزعاج يخالـطه سرور مبهم. لم يجبها وسألها.

- نايمة بالگبة چنت؟؟

فأغمضت عينيها أن نعم. لاحظ بروز نهديها وطيّات اللحم الصغيرة قرب إبطيها. كانت ذراعاهـا مكشوفتـين وبعض خطوط ملابسها الداخلية تبدو له بصورة مبهمة. لم يرها هكذا، متفتحة جريئة، منذ مدة طويلة. فصلت بينهما تلك الليلة البائسة ولم يحاولا الاقتراب من بعضهما. لكن رباطاً غير منظور يصل بينهما. وكان يحس به في لفتة منها او نظرة جانبية، ولم يكن يؤمن بوجوده. سألته وهي تضع يدها على المحجر:

- شوكت جيت؟

كانت ناضجة الجسد ممتلئته بشكل ظاهر؛ وكان يبدو عليها أنها تحس بذلك وتحسّ بتكامل المرأة فيها. أجابها وهو يشعر بانزعاجه يتلاشى:

- كِبل اربع ساعات. اول ما جيت نمت

فرفعت حاجبيها وابتسمت:

- بهدومك؟؟

فانتبه الى أنه لا يزال يرتدي بنطلونة وثوبه. هزّ رأسه وسألها:

- وين رايحة؟

فرفعت احدى كتفيها ومسحت ذراعها بيدها:

- ما أدري. جوه أشرب جاي

- تعالي هنا شوية

ودخل الغرفة فاقتربت ثم وقفت في إطار الباب. جلس على المائدة الفارغة وأخذ ينظر اليها.

ماذا حدث له فدعاها للدخول الى غرفته؟ توتّرت أعصابه قليلاً وهو يطيل من تأمله فيها وأحسّ اضطراماً في نفسه يزداد شيئاً فشيئاً. أبعد عن فكره بصعوبة تلك الخاطرة التي كانت تردّ عليه بألحاح - أنه يشتهيها، يشتهي هذا الجسد الذي يذكره بالربيع وهذه الروح الشابة، ويتمنى كل شيء فيها لنفسه. إن شوقه اليها يزيد من جمالها ومن فتوتها وحرارتها. ولكنه، آه، إنه لا يريد عملاً بائساً آخر.

سألته فجأة:

- وصّلتهالبيت أهلها؟؟

وكانت في عينيها وفي شفتيها وفي اتكاءتها على باب الغرفة، شماتة نسوية بلهاء. أذهلته لحظة تعربتها الفجّة

لكل أزمته. وبقي ينظر اليها ببعض الانزعاج. كانت تميل بكتفها اليمنى على حافة الباب المفتوح وهي تعبث بخيط متدلّ من ثوبها. لم يجبها، وشعر بتفوق وهو يحتمي بصمته ويتطلع اليها كأنها لم تستطع وضع اصبعها على الجرح الخفي. الا انها لا تفهم ذلك، لا تفهم معنى صمته.

عادت الى كلامها:

- امي تگول طلگها

كانت تقاطيع جسمها تبين لعينيه والشمس تضرب على الثوب الخفيف من خلفها. هل من المعقول ان يفعل كل شيء لأجل هذه الطفلة؟؟ لأجل جسد واحد؛ مهما بلغ من جماله وأنوثته؟؟

سألته بنفس لهجتها اللينة المتراخية:

- صدك طلگتها؟؟

ثم نقلت ثقل جسمها الى ساقها اليسرى. أجابها بصوت خشن بارد:

- انت شعليچ؟؟ شمديرها امچ؟؟

فلم يبد عليها اي تراجع. قالت:

- امي گالت، آني ما ادري. تگول شنو صوچها؟

قام يتمشى خلال الغرفة الفارغة دون ان ينظر اليها. شعر بحاجة الى حركة يلهي بها جسمه. كان منظرها مثيراً

يوحي اليه بأفكار لا يريدها. إنها تقلب أزمته ودوافعها رأساً على عقب. لم يكن شخصاً يحترم ذاته وهو يقف أمامها. وهكذا إذن، وعلى غير توقّع، يجد من يقول له إنه انهزم من الإنسان النبيل الذي أراد أن يكونه؛ وأنه كره زوجته واشمأزّ منها فطلّقها، لا غير، لا لسبب آخر. ولعل من حسن حظه ألّا تنبثق أسباب أخرى. ولكن، أليست هذه الصغيرة الساذجة على حق، ومن ورائها امها واسماعيل والجميع؟

انهم يتمسكون بمنطقهم لأنه يصون من اجلهم طرازاً معيناً من الحياة ويضمنه لهم زمناً غير محدود؛ بينما لا يهمه هو غير تحقيق فكرة لا تمس أحداً غيره في أقصى درجات خيرها. ألم يتآمر على تلك المخلوقة؟؟ ألم يخدعها؟؟ وماذا يجدي أن تكون الغاية إنسانية نبيلة اذا ترصّدت له في طريقها مثل هذه الضحايا؟؟

سمعها تهمس برقة:

ـ أذوك أهلها؟

فاستغرب رقة صوتها وحنانه، ولم يخطر له من قبل أن بمقدورها أن تتكلم هكذا. كانت أشعّة الشمس قد ارتفعت عنها وبدت السماء خلفها حمراء غامقة الحمرة. رأى عينيها الطويلتين تفيضان بسحر غامض وخصلة من شعرها تلمع فوق كتفها. لم ينزل بنظره الى جسدها. سألها:

ـ لويش؟

وكان متأثراً في قرارة نفسه. هل تشفق عليه؟؟ هل تكنّ له عاطفة ما في أعماق قلبها؟ ولماذا؟ قالت وهي تخفض نظرها الى الارض:

- أشو مقهور هواية

فتوقّف قريباً منها وأخذ يتأملها. كان ضوء السماء وراءها باهتاً يمكّنه من تمييز ملامحها وحركاتها؛ وكانت لا تزال تعبث بخيط ثوبها. لاحظ أصابعها الدقيقة السمراء وأظافرها المصبوغة بالأحمر. خطر له أنها تريد أن تظهر له ما تضمر. تهجس ذلك في حديثها وحركاتها ونظرات عينيها. غير أنه لا يملك استعداداً للانسياق وراء هذا الوهم. قال لها:

- ماكو هيچي شي. لويش انقهر؟؟

فرفعت عينيها اليه. كانتا سوداوين ساكنتين، وفي طرف كل منهما خط رفيع من الكحل. لم تجبه، ولبثت تنظر اليه لحظات. داخله اضطراب وهو ينتظر منها كلمة او بادرة، وكان يرى منها عينيها تلمعان باستمرار. بللت شفتيها بلسانها، فجذبته حركتها البسيطة هذه الى فمها. كان جميلاً تحيطه شفتاها الممتلئتان بقوسين جريئين. أحس دعوة مبهمة لا تحتمل في حركة لسانها وفي انفراج شفتيها، فازداد اضطراب قلبه. أعاد نظره الى عينيها، فواجهته نفس الدعوة الأنثوية المحرقة.

شعر على حين غرة أنها تضعه على شفا حفرة لا حدّ

لقذارتها. قال بسرعة وهو يتجه الى ناحية اخرى من الغرفة:

- روحي هسه سليمة. روحي بالعجل

وكان يلهث في كلامه. لم يرد رؤيتها ورؤية دعوتها. وكان يعلم أنه أضعف من أن يجرب نفسه في أمور تخصّها. وقف قرب النافذة المجاورة لفراشه وأمسك بحديدها الحار.

سمعها تتكلم بصوت خافتٍ:

- أشوكت أجي.. لعد؟؟ قابل نص الليل؟؟

فأشار اليها بيده إشارات سريعة أن تخرج، أن تبتعد، ولم يلتفت نحوها. كان مرتجف اليدين ملتهب الذهن، وكان يعتقد أنه مخلص في فرارة منها. ولم يدرك لذلك، كيف يفسر شعور الخيبة الذي انصبّ عليه حين سمع الباب يغلق ووقع أقدامها يتلاشى. أليس هذا هو الجنون بعينه؟ ماذا يعمل؟ اي طريق يسلك لينجو من انهيار مهين؟

أغمض عينيه فترة فأحسّ بدوار في رأسه، كأن الارض تتمايل به. ضغط بقوة على قضبان النافذة، ثم وضع جبينه على أحدها. كان مضطرب النفس بشكل لم يعهده من قبل. هل ينفعه ابتعاد موقت عنها؟؟ وماذا يعمل إذن، ماذا يعمل بنفسه؟؟

رفع رأسه وفتح عينيه. كانت السماء زرقاء داكنة، خالية الا من بضع نجمات متفرقات. وكانت الغرفة مظلمة

بعض الشيء. خطر له ان يخرج الى الشارع، فأسرع يرتدي سترته ثم نزل السلم وانفلت نحو الباب ومنه الى الطريق.

لم تبن له معالم الأرض المظلمة وتعثر مرتين او ثلاثاً، وكانت ضجّة الشارع تسمع من بعيد. اذا كانت تملك مثل هذا التأثير عليه، فهل يمكنه أن يعتقد أن وجودها شيء عابر في حياته؟ ومن يقدر أن ينفي صورتها عن كل تصاميمه وأفكاره؟ لقد كان يتآمر على زوجته حين طلّقها وحين أوصلها الى أهلها ليأتيها خبر الطلاق هناك. كان يخشى منها، لأنها كانت ستفضحه لو علمت. كانت سترفع هذا البرقع من الأفكار النبيلة عن عواطفه المبتذلة.

تعثّر مرة اخرى فتوقّف عن السير. انتبه الى أنه، في انشغاله بأفكاره، قد سلك الطريق الخاطئة فبدل اتجاهه ومضى في سيره. كان دائخاً منقبض الصدر، وكان يحس بحاجة الى الانطلاق في فضاء فسيح لا حدود له. هناك لن يعرف احداً، لن يرى إنساناً ولن يراه احد. ولكنه الآن

وحيد، الا من العيون البعيدة التي تراقب قلبه. لقد علمت ما يدبّره لها، علمت بالتأكيد. وأخبرته عيناها المدفونتان وأصابعها العظمية المتشبثة ببعضها، بأنها رضيت بمصيرها المفجع. ولقد قنع برضاها، هو البليد الجبان؛ أقنعه بؤسها بأنها يجب أن تموت.

كان الازدحام شديداً في شارع الرشيد، والسيارات

متراصّة وراء بعضها، وكان الجو مغشّى بالغبار والحرارة تشعّ من كل شيء. رأى نفسه يتّجه نحو مقهى حسن عجمي القريب. لم يفد السير في تهدئة أعصابه؛ وحين دخل المقهى وجلس على كرسيه الخشبي المعتاد، شعر بتخاذل غريب في جسمه. كان مرهقا، مستنفد القابليات؛ أرهقته هذه الحياة خلال أيام قليلة. لم يرتح الى أيّ عمل قام به، ولا يزال كذلك. وكان يحسّ برغبة شديدة في استراحة طويلة لا يعكرها عمل او تصميم.

رأى اسماعيل يمرّ قريباً منه ثم يختفي. لم يناده ولبث في كرسيّه ساكنا. ولم تمر دقائق حتى رآه يقف أمامه وهو يهتف:

- مساك الله الخير ابو جاسم

كان مبتسما وفي عينيه الصغيرتين بكاء مفضوح. استمر:

- شلونك؟؟ شوكت جيت من بعگوبة؟؟

واختفت الابتسامة من فمه، وبدا مخلصا والألم يملأ وجهه. اجابه:

- گبل چم ساعة. فد ماي وچاي بالله اسماعيل

- ممنون لابو جاسم

ثم تردّد قليلا قبل أن يمضي في سبيله. كانت دشداشته الزرقاء الحائلة مبلّلة بالماء، وحزامه المشدود يبدي

نحـول جسمـه. مـاذا يضمّ قلب هـذا المخلوق الهـرم المعذّب؟؟ وكان طرف يشماغه الملفوف بإهمال يتدلّى قريباً من عظمة كتفه البارزة. هل يخفي فضولـه مشاركـة فذة لأزمات الآخرين؟؟

لقد شغله التفكير في اسماعيل وهو في أحلك ساعات محنته. كان يخطر له، ماذا يمكن أن يعمل اسماعيل لو كان بدله؟؟ ولم يصل الى نتيجة ما؛ وكان يتوقّع ذلك، ويتوقّع أشياء كثيرة أخرى. الا أنه لم يرد أن يكون من البسطاء، لم يرد أن يكون ضعيفا. ولا يزال يرفض سعادة الاستسلام هذه.

كـان ذاهلا، يشعـر كأنـه يفكر بعـواطفه. لم تكن ضوضاء المقهى موجودة، لكنها تفاجئـه الآن فتمنع عنـه انعزاله وتقطع مجرى مشاعره الـداخلي. كـان الجو مليئـا بدخان السكاير الأبيض، الا أن الحرارة بدت أقل شدة من الخـارج. لم يعرف احداً من الجالسـين، وكانت الـوجوه السمراء المصفرّة خالية من كل معنى. إن لعنة الإنسـان الوحيدة هي أن يعيش باستمرار. أن يدفع عائشا كالعربة تطلق من أعلى جبل. لا هوادة، لا فترة موت، لا وقت للاستجمام في رحم الأم. وكـل ذلك منـطبع عـلى هذه الوجوه، وأصحابها يعرفونه جيداً. ولكن؛ لا بأس ما دمنا نستطيع أن ننسى.

وجاءه اسماعيل يحمل الشاي وكأس الماء، فوضعها

قربه ووقف هو قبالته. وماذا ننسى إذن؟ ألسنا ننتظر أنفسنا في المستقبل الأسود؟ وكان اسماعيل يتكلم معه. رآه يفعل ذلك ولم يسمعه. وهذا اسماعيل الحاضر أمامه الآن، كان ينتظر اسماعيل قبل عشر سنوات ليجعل منه صانع مقهى. واسماعيل الآخر لا يزال ينتظر في المستقبل ليستمر على صب اسماعيل العجوز في قالب صانع مقهى. ورأى اسماعيل يبتسم بخجل ويشير بيده نحو جهة مجهولة، لم يسمعه. وأين إذن نضع إرادتنا وحرّيتنا في هذه السلسلة البغيضة من المصائر المقررة؟؟ أفي الحاضر؟؟ ثم رأى اسماعيل ينحني نحوه فشم منه رائحة تبغ نفاذة وسمعه بغتة:

ـ . . . فآني سويت نفسي ما أدرى. لاكت سيد هاشم ما دار باله علي. لا ولله انقهرت هواية سيد محمد. خطية، خطية.

كانت عيناه محاطتين بالأقذار، وبضع قطرات من الماء تلمع في لحيته البيضاء الحائلة. هتف به متسائلا وقد صدمه الصوت الذي لم يسمعه من قبل:

ـ شكو؟؟ علمن دتحچي اسماعيل؟؟

فعادت الابتسامة الخجلة المؤلمة الى فمه:

ـ آني ادري انت ما تسمع مني ابو جاسم. لاكت آني هم مثل ابوك الله يرحمه

وأشار الى لحيته والى صدره، ثم استمر:

- لويش نشيل خطية غيرنا؟ الله يفرجها

هل يتكلم عن زوجته هو ايضا؟؟ وماذا يمكنه ان يريد؟؟ سأله بأستغراب:

- علويش اسماعيل؟؟ علويش؟؟

فاعتدل في وقفته ومسح يديه بدشداشته حائراً.

- على ام.. على الجماعة. ما يصير سيد محمد. الله ما يقبل

هو يقصدها اذن! كان بودّه أن يصرخ في وجهه ويطرده، ونظر اليه متمعّناً. رأى فمه متقلصا بشكل كريه، وبضع أخاديد تشوّه الوجنة الصفراء. بدهه طابع العذاب في تقاطيع اسماعيل. لقد تألم هذا المخلوق طويلا. وكانت عيناه الداكنتان تلمعان بفيض خفيف من الدموع أذهله. أبمقدوره أن يعيش مصيرها خلال لحظات معدودات، وان يبكي معها؟

لم يجبه، وأنزلِ بصره؛ ثم لاحظ ابتعاد الدشداشة الزرقاء عنه. مد يده وتناول استكان الشاي. أثّرته هذه الرؤية القصيرة لوجه اسماعيل. بقى ساكناً في مكانه وهو لا يدرك كنه هذا الشعور الذى يموج في نفسه. كان متضايقاً قلقا يساوره خوف مبهم. ألم يعمل الصواب؟؟ وهل يستطيع أحد أن يقرّر ذلك؟؟ وماذا يعرف اسماعيل عن نفسه وعن الآخرين؟ إنه يدرك عزلة الآخرين بغريزته،

ويدرك أن حبه لا يكفي لتخطّيها. ولهذا يريد أن يموت على عتبتها. وبهذه الفكرة أيضاً كان يريد منه أن يعمى مع زوجته وأن يفنى معها، وكان يريد أن يداري مأساتها بمأساة أخرى من عنده.

ولكنه يعلم كل هذا، ووضع الاستكان الفارغ جنبه. ولو لم يعلمه جيدا لما فعل ما فعل. قام من مكانه فاخترق صفوف القنفات وخرج الى الشارع. لفحه هؤلاء الطريق الحار، فأغذّ الخطى نحو باب المعظم.

كان الظلام قد تكاثف وأضوية الشارع والمخازن مشتعلة جميعها. لم يعلم الى أين يتجه وأين يقضي وقته. كان وحيداً بغير قيود وبغير أفكار. تذكر سليمة وعينيها وسؤالها الأخير ـ متى تجيئه. رأى السماء زرقاء ينتشر عليها نور خفيف أبيض.

وصل محطة الباص فتوقّف عندها. لم يدر سبب توقفه. أقبلت احدى السيارات الحمراء فدفعته عجوز الى جانب وتقدمته نحو الباب. أفزعه ذلك وتراجع خطوات الى الوراء مراقباً الصاعدين. كان قلبه يخفق بسرعة، وخطر له أنه خشي أن تكون العجوز شاباً آخر يطلب مساعدته. ماذا كان سيعمل؟؟ وماذا كان سيعمل اسماعيل؟؟

اما هو فلا يدري. واما اسماعيل، فانه سيحتضن الشاب ويجلس معه على الرصيف ليموتا سوية. لم تسرّه هذه الفكرة. إنها حل أكيد رغم بؤسه. عاود مسيره. اما هو

فكل ما يستطيع أن يؤكده هو أنه لن يعمل هكذا. ويبدو أن على الشاب أن يؤجل احتضاره الى حين إيجاد حل منطقي. وكان هذا أمرا سخيفا.

واجهته فسحة في الطريق كشفت لعينيه منظر السماء. لم ير غير نجمة او نجمتين تبرقان فيها، وخطر له أن بمقدوره أن يتملّى من رؤية النجوم وهو في سطح المنزل. سيكون الجو لطيفاً آنذاك، ولعل القمر سيبزغ أيضا. ومن يدري ماذا يخبىء له منتصف الليل.

وكان يمشي بتثاقل، ويحاول ان يعرف سر فرحته بمنتصف الليل.

بغداد في ٢٤ تشرين اول ٩٥٦ ـ ١٨ حزيران ٩٥٧

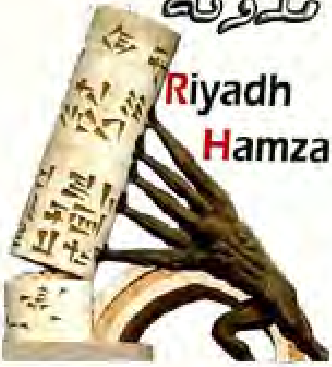
مدونة
Riyadh Hamza

وكان يسير بخطوات بطيئة ثقيلة دون أن ينظر إلى وجوه المارين رغم شعوره بوطء وجودهم . لا شيء يريح في هذه الوجوه . آلمه ، في المستشفى ، ذلك الانطباع الذي كان يصدمه في وجوه معارفه وبعض موظفي المستشفى . انطباع يائس بانعزالهم عنه وعن محنته . كان يرى بفزع في عيونهم صمتاً موحشاً لنداءاته ، وكان يشعر بفزع أشد حين يخطر له أن زوجته ، في نوبات صحوتها ، قد ترى مثل هذا الصمت في عينيه . هذه الـ « قد » ، كم أرقته ليالي ولم تزل . إنها الشكل المستديم في ألا نكون بشراً . ومن يدري ، فقد لا نستطيع ، كلنا ، أن نثبت حقيقة أخرى تنقض هذا الشك . إنه الوجه الآخر ، الهارب منا على الدوام .

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٦٨ - ٨٦١٦٣٣
ص. ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف
نجاح طاهر